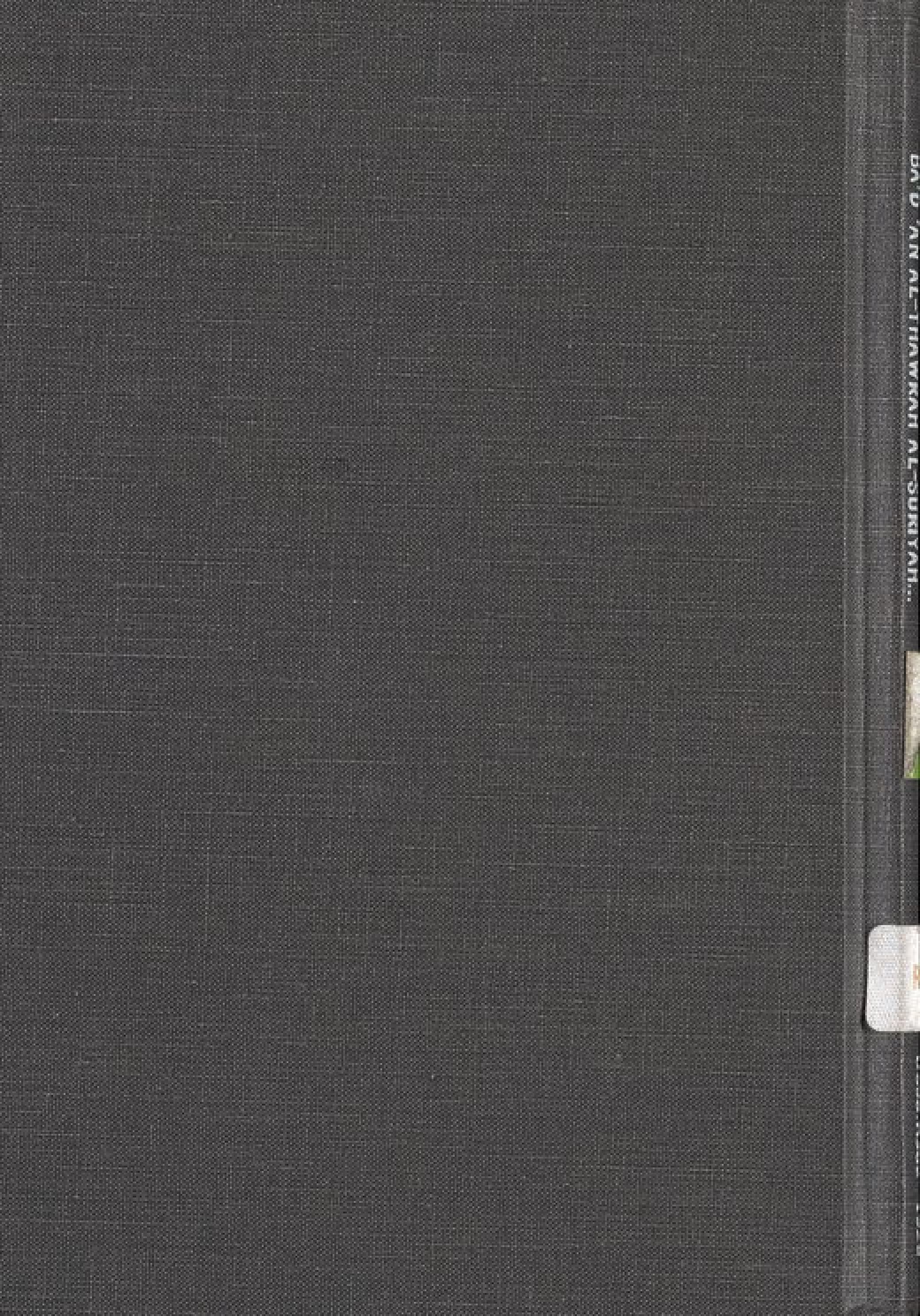
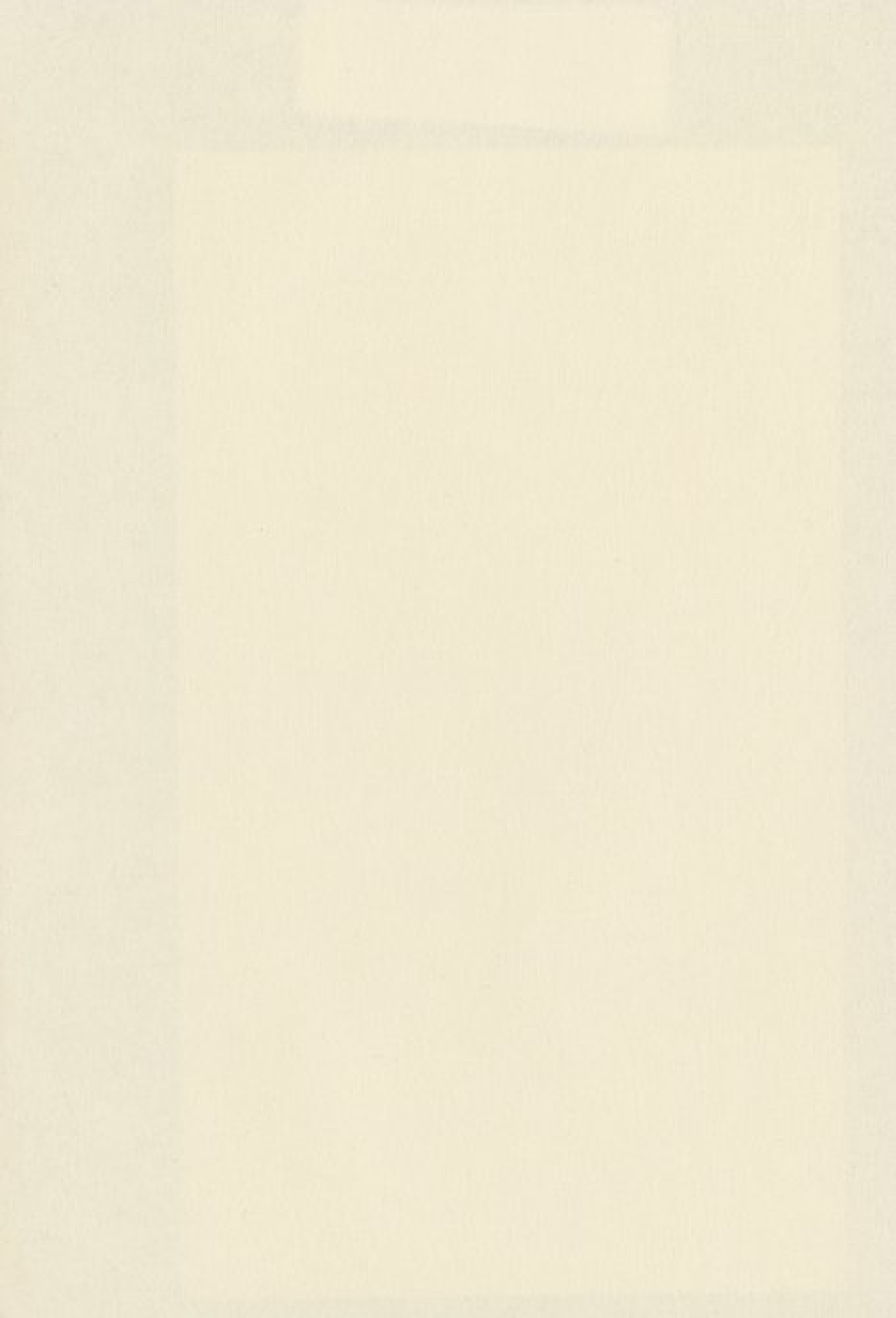

DA'U 'AN AL-THAWRAH AL-SURIYAH...




Princeton University Library
32101 061415806



حقائق ووثائق

لم تنشر بعد

عن

الثورة السورية الكبرى

عام ١٩٢٥



كلمة لا بدَّ منها

سيعترض القارئ ، وهو يتنقل بين صفحات هذا الكتاب ، ما قد يسترعي نظره بصورة خاصة ، وما يستوقفه مأخوذاً أمام الاطلاع على ما لم يكن له به سابق علم . وربما كان هذا الذي يطّلع عليه مخالفاً لرأيه كله أو بعضه ، أو ربما كان عنده ما يزيد تأكيد بعض الوثائق ؛ ويظهر هذا على الأخص عند التحدث عن بعض الشخصيات المحترمة التي ما يزال أصحابها الى الآن يشغلون مراكز عالية في الحكومة أو الأمة ... وشفيعنا في ردّ ما قد يُسدّد

إلينا من سهام النقد ، أو يُنسب إلينا
من تقصير ، أن الكتاب مترجم
لا موضوع ؛ وأننا ناقلون ، والناقل
ليس بكافر . وشيءٌ آخرُ أيضاً هو أننا
من القائلين بالأمانة التامة في الترجمة ،
محافظةً على حقِّ المؤلف ، وكشفاً
عن روحه . وغاية ما نقصد هو إيقاف
بني قومنا على ما يقال في قضية الثورة
السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وفي
هذا الكتاب الذي خطَّه مؤلفه وهو
أعلق الناس بسراي ، وأقربهم اليه ،
لأنه كاتم سره ، ما يكشف القناع
عن أسرارٍ لولاه لبقيت في طيِّ
الكتمان ؟

«زريق»

سكوت سراي

—

العظمةُ في السكوت ،

وما تبقى فهو ضعف وخور ...

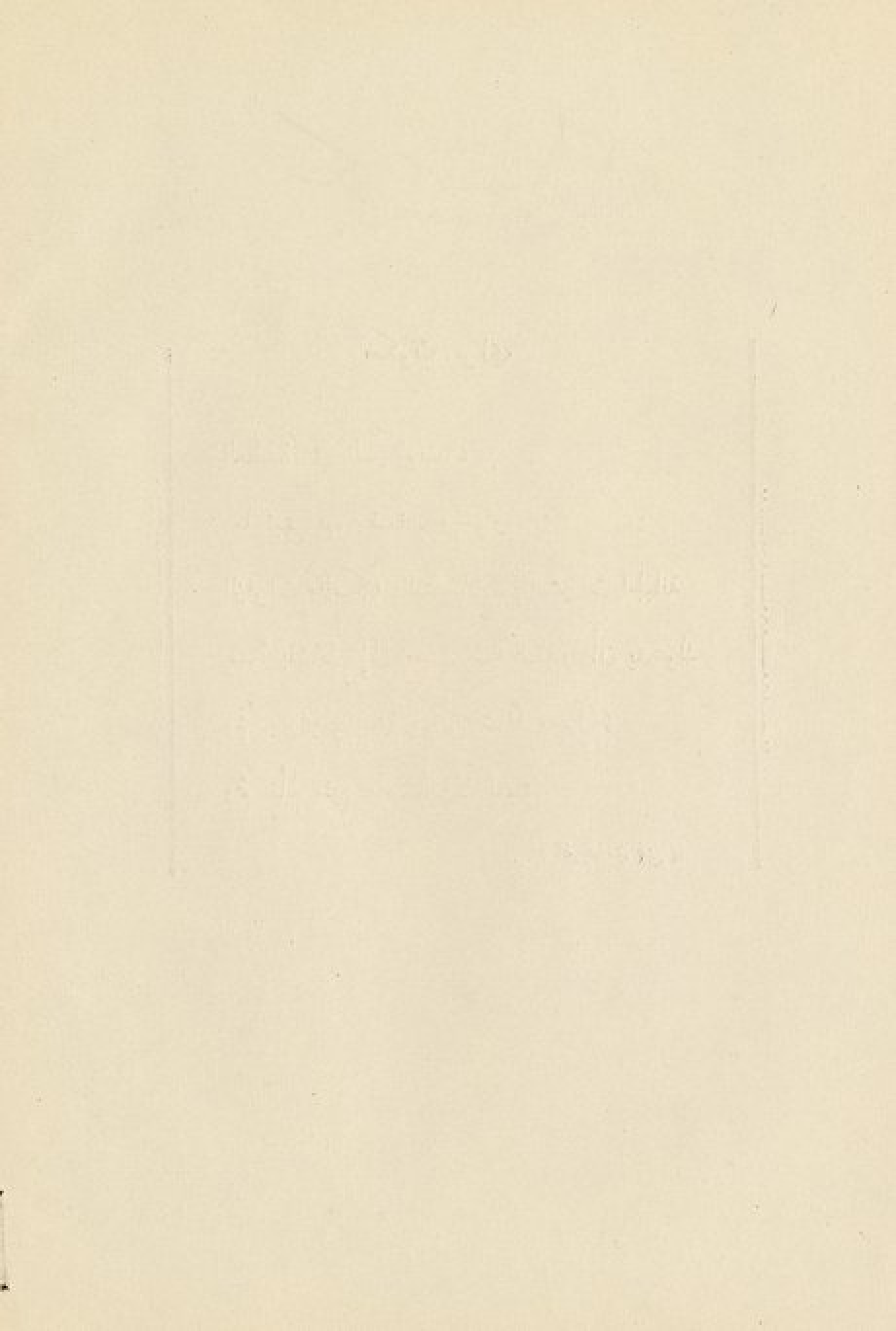
الزفرات والبكاء والتوسلات من مميزات الجبانة

سِر بنشاط إلى حيث شاء القدر أن يدعوك

وقم بالواجب مهما يكن شاقاً ومراً ،

وثمّ تألم مثلي ومُتْ ولا تنطق .

« ألفريد دي فيني »



كتاب

صديق المحن

يفضل مراي ان يستقبل اصدقاءه بين الساعة الخامسة والساعة السابعة .

وكنتُ اشاهده مراراً في بحر الاسبوع وهو في القاعة الصغرى الملأى باجلّ التذكارات واجملها في داره الكائنة بشارع « بربر » وكانت الجدران مزدانة ببعض رسوم مناظر الشرق ، وهي مناظر بسيطة ولكنها ساحرة ، وهنالك ايضا مشهد مؤثر لموقعة حربية تمثل مجموعة اسرى من البلغار مزبلين باطمار بالية وانما عليهم سمة الخُيلاء .

وفي احد الايام قال لي الجنرال : « انظر الى هؤلاء السفهاء فانهم يتضورون جوعا ومع ذلك يحسبون ان لهم الحق باملاء شروط اسرهم عليّ . ولكن رفقي لاستماع ثرثرتهم لم يحل دون معاملتهم معاملة مشبعة بروح الانسانية . وهم في الحقيقة افضل من القضية التي يدافعون عنها . »

وكان يوجد ضمن واجهة من الزجاج تمثالان كبيران لشخصين من الدروز في حلة ناصعة البياض ولكنهما غير مصقولين ، وبالقرب منهما خنجر مرصع دقيق الصنعة ومجموعة كاملة من الاوسمة الفرنسية والاجنبية ٠

وهناك ايضاً وسط إطار من الفضة صورتان شمسيتان تسترعيان النظر بنوع خاص — فالواحدة وعليها الكتابة الآتية : « الى الجنرال سراي عربونا للصداقة الخالدة » ٠ تمثل الامير اسكندر السربي بنظراته الفاترة التي وهي وراء زجاج نظارته ، يتجسم فيها الاخلاص وشيء من حب التحري والبحث ٠ والاخرى تمثل الكرونبرنز ، ذاك الوقح الشهير ولي عهد اسرة هوهنزولرن قابضا بكلتا يديه على سيفه ومنحنيا بشكل يظنه هو مجلبة للاعجاب ٠٠٠ ولا تخفى الظروف التي وجد نفسه فيها مضطراً في مساء اول كانون الثاني سنة ١٩١٥ تحت اسوار « فردون » لان يرسل رسمه إلى القائد الظافر موقعاً عليه بعد هذه العبارة : « ايها الجنرال ! اتمنى لخصمي البطل النبيل عاما جديداً سعيدا » ٠

الكرونبرنز — ولهلم »

وبعد العودة من سورية جعلت احدى زوايا القاعة معرضاً للغنيمة الفاخرة المكتسبة من الدروز في السويدا وهي كناية عن علم من الحرير الارجواني يتوجه هلال ذو لون قرمزي .

***

وكان الجنرال يؤثر الجلوس امام منضدة كتابته المغمورة دائما بالاوراق .

ولا زلت اسمع رنين ذاك الصوت الجهير يقول :

« ادخل يا كوبلنز ... ما وراؤك ؟ »

وثم يرفع نظاراته ويحدق اليك بعينيه الزرقاوين وينهض مشيراً اليك بالجلوس .

— اذن . ما وراؤك ؟

وقد شاءت المصادفات بينما كنا نستعرض الحوادث الحاضرة في احدى مقابلاتنا الاخيرة ونعلق عليها التعليق الذي يروق لنا ، أن نطرق موضوعاً لم يسبق لنا التكلم به الا ببعض التلميحات السريعة وهو موضوع « مذكراته » وانه يجب جمعها يوماً ما لازالة ما علق بالاذهان من أثر القصص الخرافية السخيفة التي يشيعها المرجفون فقال لي : « خذ — واراني

كتابا حديث الوصول — هذا شيء يهمك . فقد أرسله الي صديق عزيز « في البحار » لا تعرفه وهو كولونل في أركان الحرب يطلب مني أن أرسل اليه عاجلا مذكرة مفصلة عن قيادتي في فردون وسالونيك . »

— « الأجل معلوماته الشخصية ؟ »

— كلا . بل لان المقامات العليا تعد تاريخا نهائيا للحرب ! ويستعد (الفتى التركي) الذي أخذ على عاتقه جمع الوثائق كلها أن يوجد لي ولا ريب مكانا صغيراً فيه . وحيث يعلم أن المؤرخ الرسمي الذي يراقب العمل ويصادق عليه من (الخالدين) فنبهه الى ذلك .

ولا أقول لك عن اسمه لاني أخاف شر لسانك .

— اذن يا سيدي الجنرال فعضو الاكاديمية لا يجب أن يكون من أصدقائك ...

— كلا ولا شك ، ولكن يظهر أنه من أفاضل الناس ! ... لانه يريد أن لا أرتاب في تجرده عن الغرض رغم اضطراره الى معاكسة رغائبي في الكتابة عني .

— اذن سترسل المذكرة المطلوبة من هذا الكولونل الباسل .

— بل لا أرسل اليه شيئاً

— ولكنك لا تدعهم أيضا يكتبون التاريخ على طريقة الجنرال كوردينيه ٠

— وماذا يهمني ما يقولونه بعد موتي ٠ فاني أهزأ من السخافات ٠ لقد افتروا علي كثيراً وأنا في قيد الحياة أفليس من المؤسف الا يستمروا على ذلك بعد الممات ٠٠٠ أما ما يهمني في الدرجة الاولى — وأضاف بجزم — هو أن يستطيع ابني عمانوئيل يوما ما معرفة الحقيقة كلها ٠ وسيعرفها من والدته ٠

ولم أكن أجهل ان الجنرال كان منذ اعوام عديدة يخصص معظم اوقات الاجازة التي يقضيها في (غاش) لكتابة المذكرات التي ينوي تركها لابنه ٠

وتغير صوته فجأة وبدت عليه دلائل الجد — وهو عادة ينعش الحديث بالاحكام الوجيزة التي يصدرها ٠ ويطلب الرد او الاعتراض عليها ولمح تلميحاً طفيفا الى المذكرات التي يعدها الى عمانوئيل ٠

— « ولا عمل من الاعمال بقي طي الخفاء ٠ ٠ ٠ —

هذا ما أؤمله على الاقل — كما ان العبارات المنمقة لا وجود لها ، فالامر مقتصر على التاريخ والنصوص والاوامر ٠

وقلما يلحظ هنا وهناك بعض التعليقات الوجيزة التي لا غنى عنها . وما تبقى . . . (وهنا استولت السوداء عليه فنوّعت نغمة صوته) . . . اتمنى . . . لو ان راهباً من رهبان البند كتين المولعين بالابحاث التاريخية يعثر بعد جيل او جيلين على هذه الوثائق وعندئذ لا يبقى اسمي مثار الشبهة اذ ان هذا الرجل الصالح يكشف عن الحقيقة . . . . وكم يكون سروره عظيما بلقيته ! وربما يصححون بعض الخطيئات اذا لم يعتبر الوقت قد فات . أما الآن فلا اريد الانزعاج لاني اتوق الى الراحة والهدوء . ولا احب الزوبعة تحت اكداس الاوراق التي اخذوا باستعمالها بعد الحرب لاثارة الحملات الصحفية بشكل صبياني يحدث دوياً فارغا ويجلب الهزؤ والسخرية »

فاعترضت بقولي : ولكن ياسيدي الجنرال ارجو ان لا تنسى كتابك الذي عنوانه « قيادتي في الشرق » . . .

— لم استطع ان اكتب فيه كل شيءٍ . . . ولكن ما كتبته كان لا بد منه .

— فاصدقاؤك . بفضله . . .

— اصدقائي ! اصدقائي ! كان عليهم ان يدافعوا

عني لما هوجمت — على اني استثني « فرايـا » والبعض منهم -- اما اولئك الذين يتظاهرون بالعطف ويدّعون الاهتمام بتخليد ذكراي قصد افشـاء الخفايا ذات الدوي البعيد فالاجدر بهم ان يستثمروا مورداً آخر ..

ولما لحظ على ملامحي علائم الدهشة لهذا القرار الذي يقضي على كل امل في الكتابة عنه لطّف صوته قليلاً وقال :

— « ارى ان هذا الحديث يغيظك . اتريد ان ننتقل الى موضوع آخر ؟ . . . . اسمع . . . ان الاستثناء الوحيد الذي قد اجيزه هو وضع كتيب يتضمن بعض الوثائق الصحيحة التي لا تقبل النقض . . . وهذه الوثائق وان كانت معلومة من « الكاي دورساي » والقيادة العامة الا انها مجهولة من سائر الناس وهي ليست كما يخطر ببالك انها ستكون . . . فلا هي ملخص خطرات مؤرخ وقائد جيوش كما انها ليست مفكرات احد رجال الجندية . بل هي وقائع سجلها أحد اصدقاء ايام المحن الذي شاهد بام العين بعض الفصول البذيئة تمثل علانية وسمعني أكثر الكلام عن الآخرين . فهي والحالة هذه شهادة محسوسة لا اكثر ولا اقل . »

ونهض الجنرال على الفور وسار بي الى غرفة محاذية وقال : « ولكنك لا تفعل ذلك ! فانت اكمل من ان تفكر في هذا الامر ؛ ولك الحق — اذ ما هي الفائدة؟ ولا احد يصدقك رغم الوثائق التي بيدك ... » (يشير الجنرال في هذا التمليح الى بعض وثائق اودعني اياها بعد ان حصل مني على وعد قاطع بعدم نشرها وهو في قيد الحياة — وسيطلع عليها القارئ في سياق هذا الكتاب . وقد بررت بالوعد رغم ما يشيعه البعض عني باني لا اكتم سراً . وارى اليوم من الواجب ان احل العقدة واخرج سراي من سكوته .)

وخرجنا الى شارع « بربر » ورافقت الجنرال كالعادة حتى جادة الجيش الكبير .

صورة لسراي

كنا إذا ما استحوذ الضجر علينا من كثرة المناقشة في الشؤون السياسية ، ننتقل الى الادب ؛ وكان سراي يشعر بلذة عظيمة لسماع تلاوة سير بعض القواد الذين اشتهروا في الحرب وبلغت المغالاة في اطراء صفاتهم حداً مضحكا .

— « افضل الف مرة انواع الشتائم واللعنات التي يصبونها عليّ بكل سخاء على هذا الضرب من المهازل . »

ولم يكن الجنرال يحب هذه الصور التي يصورون بها ابطال الحرب ، ولا الاوصاف الخلابة التي يصفون بها شكلهم ويفرطون افراطا يجلب السخرية .

وقد قرأت في يوم لسراي وصفين لرجل واحد ممتاز من رجال الجندية وكلاهما مفرغ في قالب من النعوت الفخمة لا تنطبق على سكان هذا العالم ..

— « عدني يا كوبلنز بانك لا تقتفي اثر هؤلاء

الكتاب في مثل هذه الحالات ، ولا عن بعد — فاني اكره هذا الاسلوب ... أوَ لا يعرف اصدقائي ومعارفي من أية طينة جبلت ؟ »

ومع ذلك فقد أصاب المسيو « فرايا » كبد الحقيقة في رسمه على صفحات مؤلفه « مكدونيا » صورة للجنرال نادرة المثال أعجب بها اصدقاؤه غاية الاعجاب .

وعسى « فرايا » لا يتكدر وهو موضع احترام سراي اذا ما اوردت هنا ما جاء في هذه الصفحات الخالدة مما هو معلوم لدى جميع المترددين على شارع « بريو »

***

« يتصف الجنرال سراي بطول القامة ونحافتها ويمتاز بالرشاقة . واذا ما ظهر عليه احيانا قليل من الحدب وهو يحني رأسه فنشاطه لا يقلُّ عن نشاط الشبان وشعره الابيض المسترسل الى الوراء يكشف عن جبين عريض وعيناه ذات اللون الازرق النادر تشفان باشعتهما عن يقظة وسرعة خاطر ؛ وتحسنان في الوقت نفسه تمثيل القساوة الشديدة واللطف المتناهي ، فهما عينا رئيس وعاشق . بل هما عينان فرنسيتان ! واذا ما كلمته يلقي اليك نظرة تخترق

نظراتك فيعسر عليك التملص من قوتها السحرية .

« ويعلو فمه الدقيق شاربان طويلان بلون الثلج الناصع البياض وله يدان ضامرتان مستطيلتان كايدي الفنانين .

« وهو ذو شخصية جذابة لا تقاوم — وقد حدث لجميع خصومه أن مر في حياتهم وقت اضطروا فيه الى الاعراب عن اعجابهم به وكانوا يحضرون لاجل محادثته . وبعد ان يتملكهم نفوذه يعودون الى محاولة التحرر منه فيفوزون في النهاية باسترجاع ارادتهم المطلقة ويعثرون على شعور الحقد الذي اخمدته هذه القوة الساحرة هنيهة في صدورهم . ولكنهم يكونون قد عانوا تأثير ذلك النفوذ .

« وسمعت من الضباط — من كانوا يعتقدون انهم على صواب في الحقد عليه — يتكلمون عنه بلهجة حزينة كلهجة العاشق الذي يلعن معشوقته لانها خدعته ! . . .

ومن الوجهة المعنوية فسراي ذو عواطف رقيقة ولكنه نزق قليل الجلد ؛ ويبدو ذلك في سرعة حدته وعنفه ؟ علّى ان ذوي الجرأة الذين يحسنون الصبر على مرور الفورة الاولى من غضبه ينتصرون عليه دائماً . وهو وفيّ وكثير الثقة باصدقائه ومعارفه ومع ذلك فقليل من الرجال اودت بهم

الثقة الى مخازي الخيانة مثلما اودت به ولكنه لم يقنط .
وهو نقي الضمير وحيّ الوجدان يكره الجبن والدناءة
ويتأثر بل يحزن اشد الحزن لكل نقيصة تخلّ بالواجب .
وقد يلام على صلابته ، واحيانا على تعصبه لعقيدته ، وانما كان
دائما مثال الصدق والصراحة . واذا ما ادُّعي بانه اتي
باعمال مخالفة للانصاف فجميع اعماله كانت علنية وما رفض
مرة تحمل تبعاتها .

. ولكن هل في الحقيقة اتى عملا مخالفاً للانصاف ؟
فهذا ما يحتاج لاثبات .

. يلومون سراي على الشهادات السيئة التي اعطاهـا
لبعض الضباط . ولا عجب اذا ما شكا المرؤوس — الذي
يرى نفسه موضع استياء رئيسه — من الرئيس وعزا اليه
قلة الانصاف . ومع هذا فلم تكن تلك الشهادات مناقضة
لحكم الضمير — وكم كان يتأثر لشدتها — غير ان شعوره
بمـا يقضي به الواجب عليه كرئيس كان يصونه من
الزلّة .

واذكر باني لما كنت سكرتيراً له في فرقة المشاة
الـ ٣٩ — اجترأت في احـد الايام على لفت نظره الى
الحزن العميق المستولي على احد الضباط والى يأسه الشديد

من جراء ما دون في سجله من التقديرات السيئة .
(وكان المفروض على الضباط في ذلك الزمن ان يأخذوا
علماً بما يسطر في سجلهم)

« فبعد ان خطا عدة خطوات في مكتبه طولا وعرضاً
ونقر على شاربه بحركة مألوفة لديه وقف امامي وقال :
« ان ما كتبته لهو عن عقيدة . اليس الواجب عليّ ان
اقول الحق ؟ لاريب ان الكابتين ... رجل طيب القلب
وفاضل ولكنه ليس من الضباط الصالحين للعمل . افترض
انني استسلمت لعواطفي وقادني الضعف الى السكوت عن
كفاءته وتسلم احدى القيادات التي هو ليس بكفء لها
وعقب ذلك نشوب حرب وحدث انه بتأثير جهله او طيشه
سبب سفك دماء رجاله عبثاً ، افلا اكون انا اكبر
من تقع عليه تبعة هذه المجزرة الفظيعة ؟

فاعلم ان نتيجة التسامح ورقة القلب الزائفة كثيرا ما
تفضي الى البلايا والنكبات . ومن يعهد اليه في تقدير
الرجال المدعوين لتقلد الرئاسة لايجب ان يعاهد النفس على
التسامح جزافا ارضاء للمناسبات الاجتماعية . »

وقد سمعته مراراً يقول : « ما منحت قط علامات

جيدة لاضابط الذي يشاطرني الرأي السياسي بينما هو لا يستحق الترقي . وليس ذلك لخير البلاد فحسب بل لخير العقيدة التي يخدمها أيضا . »

وهل هناك ما يجيز الادعاء بان سراي لم يخطئ في حياته ؟ كلا فقد اخطأ وانخدع أحياناً كباقي الناس . ولكن حينما كان ينبه الى الخطأ لم يكن ليتردد في الاعتراف به له والمبادرة الى اصلاحه — وهذا ما يجدر الاشارة اليه — فلماذا اذن كان له خصوم كثيرون ؟

« ذلك لانه كان يعتنق مذهباً مخالفاً لمذهب هيئة الضباط القدماء في الجيش الذين كانوا يريدون البقاء عصبة واحدة . وقد اتيح لي أن أصادف في أثناء الحرب قائدين أو ثلاثة قواد على مثاله . فمن الخطل اذن ان يزعم بانه منقطع النظير على أنه هو يوضع في المرتبة الاولى . وهو الذي بذل الجهود القوية لفتح أبواب الجندية أمام أبناء الشعب و كثيرون هم الذين لا يغفرون له هذه الزلة ...

« ولما كان من جهة أخرى من الرجال الممتازين بالحزم وقوة الارادة والبأس فلا يمكن أن يشعر الانسان نحوه شعوراً

من النوع المتوسط أو المحايد فهو يستحق إما العبادة واما البغضاء ..»[1]

ومن يقرأ وصفك الدقيق أيها العزيز «فرابا» يتمثل نصب عينيه صورة سراي الحقيقية في حركاته المألوفة وبساطته السامية .



(١) نشر هذا الوصف في الكتاب «مكدونيا» تحت عنوان «خواطر ضابط ارتباط في الشرق» في الصفحة ٢٥ وما بعدها .

سراي في بيروت

٢٣ كانون الاول ١٩٢٤ — ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٥

محادثة هريو

قبل سفر سراي الى بيروت ببضعة أيام حادثه المسيو هريو رئيس مجلس الوزراء محادثة طويلة وزوده بالتعليمات التي اوجزها لي الجنرال في هذه الكلمات :

« لم يهتم سلفاك غورو وويغان بتاتا بغير الاقليات المسيحية واللاتين فقط وقد حان الوقت للجمهورية اذاما ارادت اجتناب المفاجئات ان تفكر قليلا في الاكثرية الاسلامية القاطنة في بلاد الانتداب ».

وقال له ايضا رئيس الوزارة في خلال هذه المقابلة بان الحكومة تعتمد عليه في تطبيق روح الانتداب عينها في البلاد السورية وروى له هذا التعريف البليغ الذي

فاه به المسيو فيفياني : « الدولة المنتدبة تحمي الوطنيين وتدير البلاد لخير الجميع وتكون مسئولة تجاه جمعية جنيف حتى اليوم الذي تستطيع فيه الشعوب الفتية ان تتبع مقدراتها بدون مساعدة »

ولم يلم المسيو هريو سلفاه سراي بتاتا على الادارة التي كانت نتيجة تعليمات حكومات مختلفة . فالعصبة الوطنية وكل اهتمامها بسياسة النفوذ المصطبغة بالروح الاكليريكية لم تهتم الا بكاثوليك الشرق وعددهم اربعمائة الف نسمة على ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان . وهذا ما دعا الجنرال غورو حال وصوله الى دمشق الى ترديد ذكر الصليبيين والقديس لويس — اوَ لم يحيِّ الجنرال ويغاند نفسه البطريركَ الماروني بهذه العبارة التي اوّلها المسلمون تأويلا سيئا وهي : ان مهمتي لم تبدأ الا منذ ما منحتموني غبطتكم البركة ! »

وويغاند الذي قوبل بالترحاب في لبنان المسيحي لم يقابل في سورية المسلمة الا بالفتور — وسراي كهريو لم ينكر العمل الذي قام به ويغاند في التنظيم القضائي اذ عرف كيف يراعي باساليبه الجديدة شعور القضاة الوطنيين بدلا

من ان يثيرها كما فعل الجنرال غورو — وهكذا فقد جعل البلاد تقبل نظاما قضائيا اوفر سرعة واكثر انصافاً ونزاهة .

وكتب سراي يقول : « أطلعني المسيو هربو على التدابير الاخيرة التي اتخذها سلفي فهي وان كانت مهمة ولكنها من حيث الشكل توجب الانتقاد المر ، وهنا الامر يتعلق بقرارين اصدرهما المفوض السامي (ورفعهما الى الجنرال وبغاند بعد وصول البرقية باستدعائه الى فرنسا) ينصان على احداث دولة لبنان الكبير ودولة سورية (باتحاد دولتي دمشق وحلب القديمتين) ودولة العلويين ودولة جبل الدروز التي يراقبها اداريا مندوب المفوض السامي في دمشق »

وقد ولد هذان القراران حالة ادارية مصطنعة لم يشأ المفوض السامي الجديد ان ينقضهما اذ كان عازما قبل كل شيء على الظهور بمظهر من أتى ليتمم عمل سلفه وليس لينقضه ، الا انهما كانا مصدراً لشتى المصاعب .

وقد طلبت الحكومة الى الجنرال سراي ان يسرع ما امكن في اجراء تخفيضات هامة في ميزانيتي المالكية

والعسكرية (وقد كانت الميزانية العسكرية في عام ١٩٢٠ تبلغ ٥٠٠ مليون والملكية ١٨٠ مليونا وفي عام ١٩٢٢ كانت الاولى ٢٢٠ مليونا والثانية ١٨٠ مليونا وفي عام ١٩٢٥ خفضت الاولى الى ١٧٠ مليونا والثانية الى ٧ ملايين)

وقد قال هريو : « ان لم نسلك هذا الطريق نثق بعدم الحصول من طرف اليسار على اقتراح الاعتمادات الضرورية » .

السفر الى بيروت

٢٣ كانون الاول ١٩٢٤

أتت الى رصيف محطة باريز — ليون — البحر المتوسط زمرة اصدقاء الايام العصيبة يضاف اليها بعض الفضوليين والاصدقاء المتحجبين لوداع مدام سراي واسرته الصغيرة المؤلفة من عمانوئيل وعمره ست سنوات ومونيك وعمرها اربع سنين وكانت هذه تفيض فرحا وسرورا وشعرها الذهبي المجعد لا يهدأ في مكانه لكثرة حركتها وشغفها بالسفر

الجميل ، اما عمانوئيل فبقوامه الرشيق ونظراته النيرة كان
يظهر انه اقل سروراً من مونيك وكانت تترقرق على ثغره
ابتسامة رقيقة ولكن لا اعلم ماذا كان في ملامحه مما يدل
على الخطورة والجد والتفكير . وسألته قبل صفير القطار
بقليل . « أأنت مسرور بهذا السفر ؟ » — نعم لان ابي
مسرور ولكن لا يجب بعد سفرنا ان يتكلموا عنه بسوء
في باريس » قال الولد ذلك بصورة جدّية مؤثرة .

وكان الجنرال يخطر على الرصيف طولا وعرضا
مصافحا اصدقاءه وعليه دلائل الهدوء والحزم .

وقبل تحرك القطار ببضع دقائق تقدم شرطي الى مدير
غرفة المفوض السامي ونبهه الى وجود شخص خطر يدور
حول العربة الرسمية .

وهكذا فالجنرال سراي الذي نبّه الى الخطر الحائق
به علم بان اعين دائرة الامن العام كانت ترمقني ...

الوصول الى بيروت

وصل سراي الى بيروت في ٢ كانون ثاني ٩٢٥ وقبل ان
تطأ قدماه الارض اللبنانية وقبل ان يأتي بحركة أو

يفوه بكلمة اعلن اليسوعيون عليه الحرب المقدسة . وكان صراي يقول : « هم الذين بدأوا القتال »

ولدى اعلان تعيينه مفوضا ساميا اعطيت التعليمات الى جميع المدارس الكاثوليكية بالتزام الصمت دقيقة واحدة اشارة الى الحزن الوطني .

وكتب اليَّ الجنرال بعد بضعة أيام يقول : اني بغاية التأثر لما لاقيته من الاكرام الخلاب ولا أحد حتى الان لم يغمرني بشرف التشبيه بالجندي المجهول وكنت ايضاً موضوع عناية أخرى كثيرة الشق وذلك بينما كنت ابحث بدون جدوى في مكتب سلفي الكائن في دار المفوضية لعلي أعثر على أوراق أو اضبارات يسهل تتبعها ، وجدت الجوارات خالية خاوية . اني أجدف ... اذ في الواقع وجدت شيئاً أحسن هو كتاب التعليم المسيحي المتروك هناك ولاريب لاجل هدايتي . أضيف أيضاً بان تقرير الشرطة الذي وصلني في هذا الصباح تركني تحت هواجس التفكير إذ يقولون فيه إن عدد الضباط الذين يذهبون لحضور القداس سقط الى النصف . « باللجبانة البشرية التي لا حد لها حتى في القيام بالفروض المقدسة »

المراسم الدينية

في عين اليوم الذي وصل فيه سراي وكانت الترتيبات الموسيقية بتمام الاتقان حدث ذلك الشجار الشهير المعروف بحادثة المراسم الدينية . وقد انتدب لديه الاب ريمي الكاهن اللاتيني لتجربة المناورة الاولى .

يجب استعارة قلم « بلزاك » لوصف الاب ريمي وصفاً دقيقا : هو بدّال وطبّاع وصيرفي ومشاغب وصاحب الحظوة العظمى لدى ملقاه الجنرال سراي . وقد كان هذا الرجل الصالح يعرف كيف يستفيد من حسن نوايا ممثلي فرنسا ويمزج الروحيات بالزمنيات خير مزج . واليك مثالا عن الشروط المتينة التي تخلت فيها ادارة غورو عن ادوات مطبعية جسيمة بقيمة مليون تقريبا الى الاب ريمي . كان ذلك في زمن الفخفخة والزهو الذي كان ينتقده المسيو جونار بخشونة حيث كانت الاذاعات ونشرات الدعاية المحررة بالعربية والفرنسية تصدر بالاطنان من مطابع المفوضية العليا لبث تعاليمها الصادقة . ولكن بعد قليل لم تعد الادوات

المطبعية تكفي للقيام بمثل هذا العمل فتقدم الاب ريمي وكان يطبع في هذه المطابع رسالات التعاليم المسيحية باقتراح صغير قائلا : « اود ان اخلصكم من هذه المشكلة .» وكان كمن ارسلته العناية الالهية .

وهنا اورد خلاصة الاتفاق الذي عقد في ١٩ شباط ٩٢٢ بين الاب ريمي ومصلحة اللوازم في المفوضية :

« يفتح حساب جار بين حضرة الاب ريمي ومصلحة اللوازم في المفوضية العليا واول مادة اساسية يتركب منها الحساب تكون الادوات المطبعية (المتخلى عنها) لحضرته . والاتفاقية تربط مصلحة اللوازم به وتجبرها على تشغيل مطبعة الاب المحترم ريمي لاستيفاء ثمن الادوات (المتخلى عنها) ولا يكون بالامكان — ردحا من الزمن — مخاطبة اصحاب المطابع الاخرى او طرح المطبوعات اللازمة لسائر دوائر المفوضية العليا بالمناقصة . وهكذا يتنازل للاب ريمي بلا مقابل عن ادوات مطبعية تبلغ قيمتها نحو المليون على ان يسدد الدين من اجرة المطبوعات التي توصي بها المفوضية العليا . ومن البديهي ان الاسعار «اللطيفة» التي يحددها الاب ريمي لا تقبل الجدل ولا تخضع للمزاحمة وقد تسنى للمسيو

جونار ان يتحقق من الوفر المتلف الذي جرّته هذه الصفقة الشائنة » .

وبينما كان سراي يتهادى على ظهر الباخرة (لوتس) في يوم ٢ كانون ثاني واذا برجل الاعمال الاب ريمي — وهو ايضا كاهن في الجيش — يفد على المفوض السامي ويدعوه الى حضور قداس يقام خصيصا اكراما له .

وكان ذلك شركاً لان سراي وهو آت الى بيروت وقف على جميع الاصول المتبعة في ترتيبات الاحتفالات الكنسية وعلم بانه كممثل لدولة فرنسا يجب عليه حضور بعض القداديس المعروفة بالقداديس القنصلية شخصيا . وكان قد أطلع على التفاصيل العديدة المتعلقة بهذه القداديس التقليدية والمدونة في باب خاص لدى وزارة الخارجية في الكاي دورساي وأخذ بها علما . لذلك اتضح له أنه ليس للقداس الذي دعاه لحضوره الاب ريمي أية صبغة قنصلية بل انه يقام لمجرد تكريمه الشخصي فشكر الاب المحترم واكتفى بندب أكبر موظف في المفوضية العليا وهو المسيو دي ربفي الوزير المفوض ليمثله في هذا الاحتفال .

وكان المسيو دي ربفي أمين السر العام في المفوضية العليا

منذ عدة سنين متخصصاً بشؤون المراسيم الدينية وكان من أهم واجباته ان يبين آراءه للمفوض السامي الجديد ويدلي له بالمعلومات . فلما سأله هذا الاخير مطولا عن موضوع هذا القداس أجاب صريحا بانه قداس ترحاب وليس قداسا قنصلياً .

وابدى سراي الملاحظة الآتية قائلا « لو قبلت الدعوة لكنت مضطرا للذهاب أيضا الى معابد تسعة وعشرين طائفة في هذه البلاد لها رعايا يمكنهم التذرع بنفس الاسباب لاقامة صلوات خشوعية احتفاء بمقدمي »

تظاهر الاب ريمي بفهم اسباب تردد المفوض السامي وبارح السراي وهو يفرك يديه متوجها لتقديم الحساب عن نتيجة مهمته للسيد جانيني القاصد الرسولي .

قال سراي : « تعلمون نتيجة المناورة . فقد نجحت خطتهم وبلغوا الغاية التي ابتغوها وأذاعوا في كل مكان باني أهنت الكنيسة ورفضت حضور القداس القنصلي . وتعللوا في كتاب ملوء الصخب والضجيج تلاه من على منبر الخطابة في مجلس النواب الفرنسي اشيل فولد الاسرائيلي (المهتدي) بتصريحاتي ولكن هذه التصريحات كانت واضحة ليس فيها

ما يثير سخط العالم ويبرر الشكوى بانه قضي على نفوذ فرنسا في الشرق .

ولكن رغم كل ذلك كان يذهب سراي بابهة عظيمة لحضور جميع القداديس القنصلية الحقيقية ترافقه قرينته وقد حفظ ذكرى عظمة الاحتفالات الباهرة التي كانت تنظم بشكل مدهش . وكان يجلس ممثل الدولة المنتدبة على اريكة ذات لون ارجواني محلاة بالذهب ترفعه على عامة المؤمنين .

سراي عند غبطة البطريرك

هؤلاء ذوو النفوس المسيحية البارة الشفوقة الذين سعوا لتسميم حادثة القداديس القنصلية واكثار عدد الدعوات الى الصلوات الخصوصية ، هم ذاتهم يبذلون الجهود لايقاع الشقاق بين سراي والسيد الحويك بطريرك الموارنة الجليل . وقد اخذوا يقنعونه بان الجنرال عازم على اضطهاد الدين فدب القلق الى البطريرك وقام بزيارة تحفها الابهة والعظمة للمفوض السامي الذي طمأنه كل الاطمئنان فزال سوء التفاهم وآب المتآمرون بالفشل ولكنهم لم يقفوا عند هذا

الحدّ بل اخذوا ينقولون نقولات لا صحة لها ردّدها البطريرك نفسه . ومؤداها ان الجنرال لم يحترم البطريرك الماروني فتأثر سراي لسماعه هذا الخبر وبادر مرة اخرى لتبديد « غيوم النفاق وسوء النية » كما ورد في عبارة البطريرك حرفيا — برده الزيارة لغبطته في دير بكركي الفخم الذي يبعد نحو عشرين كيلومتراً عن مدينة بيروت ويشرف علىّ بلدة جونيه الصغيرة الجميلة .

وكتب اليّ سراي يقول : « ارثي من صميم الفؤاد لحاله لان هذا الحبر العظيم اقل تصرفا بحريته في بكركي مما كان عليه سابقاً البابا بيوس السابع في افينيون »

ينتخب الاساقفة المارونيون البطريرك ولكن الاساقفة ورؤساء الاساقفة المارونيين تنتخبهم الطائفة خلافا للاصول المتبعة في اوروبا عند تعيين الاساقفة الكاثوليك — ويظهر أن هذه الحالة تجيز لهم التحكم باسم الرعية وانما تطلق لمطامعهم العنان .

شكا صاحب الغبطة الى سراي مدفوعا بعامل الاخلاص شكاية مرّة من الدسائس المنصوبة حواليه وفي نفس مقامه . ذلك ان رؤساء الاساقفة ويقودهم احد نائبي البطريركية العاملين الطامح الى السدة البطريركية قرروا استلام مقاليد

الطائفة بايديهم بعد ان تجاسروا على استلال سيوف الانذار والوعيد في وجه سيدهم الوقور مهددينه بالعزل بحجة انه طاعن في السن ... وبفضل الحيل السافلة التي دبرها اكبر معربد بينهم عبد الله الخوري حاكم الحقيقي للكرسي البطريركي وصديق جريدة الايكوده باري وضعوه تحت نوع من الوصاية تخضع لها جميع اعماله المتعلقة بالبطريركية ٠

وكان لهذه الدسائس الداخلية ولا سيما في وهلة الانتخابات النيابية اثر فعّال ولد الهيجان في بعض القرى اللبنانية لدرجة اضطرت الحاكم معها الى ارسال نجدة سنغالية من طرابلس الى زغرتا وكان ذلك كافيا لتهدئة الخواطر التي اثارتها مواعظ الخوري ٠ غير ان لون جنودنا اضرم نار الغيرة الرسولية المقدسة في صدر عبد الله الخوري الثائر فاخذ يعلن باسم البطريرك الذي لم يتداور بشكل وقح في خطبه وفي بعض المقالات الموحى بها منه عن عدم مقدرة غبطته ٠ وكان اصدى هذا الحادث من حيث وجهة النظر الفرنسية والدينية معا اسوأ وقع ٠

ولما اتى مندوب سراي لازالة التأثير السيء وجد نفسه مرة اخرى امام شيخ تعس تدير حركاته عصبة متوحشة

من ذوي المطامع كما تدار حركات التماثيل الخشبية طوعا لدسائسهم الموجهة ليس ضد سراي ولكن ضد فرنسا .

وكتب الي سراي يقول : « لا شك ان هذا الحبر الجليل باذعانه للآراء المعوجة التي كانت تسديها له حاشيته خلال الحرب اضطر الى ان يحيد موقتا عن الطريق التي كان يسير عليها منـذ تسنمه السدة البطريركية حتى عام ١٩١٤ . ولكن السيد الحويك ادّى الى ذاك الوقت خدمات جلى للجمهورية الفرنسية (ايا كانت الصبغة التي اصطبغت بها حكوماتها) اذ كان يعدها دوما تلك الامة الكريمة التي انقذت الشعب الماروني من الاضطهاد في عام ١٨٦٠

لم يكن استقبال جمال باشا حاكم سورية ووزير حربية تركيا والقائد العام للجيش الرابع وهو مرتد لباس جنرال الماني لمـا زار جونية البلدة المارونية في ١٨ آب ١٩١٥ ينقصه شيء من معالم الابهة والفخفخة .

وبعد أن اجتاز البلدة بين الهتاف والتصفيق ذهب توا الى السراي حيث أعد له طعام خفيف . ولما قارب الانتهاء

من تناول الطعام قدم له قالب من الحلوى يمثل برج ايفل وكان لذلك مغزى دقيق فكسره جمال باشا وهو يقول : «سحقت رأس العدو» . وقد كان مندوبو البطريرك وجهوا الى صاحب الدولة خادم القيصر الالماني الامين دعوة حارة لزيارة الديمان مقر البطريرك الصيفي فلم يتأخر عن اجابة الدعوة واحتفى باستقباله السيد الحويك محفوفا بالمطارنة والكهنة احتفاء شائقا يليق بمقامه الرفيع واكد لدولته عما يكنه له من عظيم الاجلال والاحترام ولم يغفل صاحب الغبطة أثناء هذه الزيارة عن اقامة الدليل الصريح على تعلقه الوثيق باهداب السلطنة فكان بوجه الادعية بصوت عال الى الله طالبا للجيش العثماني وحلفائه (المانيا العظمى والنمسا التي لا تقل عظمة عنها) المجد والظفر . ولم يغفل أيضا بفضل روح التحريض التي كان يبثها فيه نوابه الاعتراء عن انكار ما عزي اليه خطأ قبل نشوب الحرب من التصريحات المنطوية على محبته لفرنسا

وفي وسعي ان اذكر اسم كاهن — توصل المسيو دي كربلس الى نقل كلامه — فاه بخطاب شائق اختتمه بهذه العبارة :

« نحن يا جمال ، رغم ثوبنا الرهباني ، من اشد الجنود

بأساً فاذا ما اخذتنا معك وشاهدتنا امام العدو لقدرتنا حق قدرنا . نحن نسير في طليعة الجيش ونخرق برصاصنا صدور اعداء دولتنا . اقسم لك بالله على ذلك . »

وليس القصد ايقاظ روح الجدل الدفين من ذكرى السلوك المؤسف الذي سلكه اولئك الذين طالما لقبوا بابطال القضية الفرنسية في الشرق فقد تكرّم الجنرال سراي بمنع افشاء هذه الوقائع التاريخية بينما بعض زعماء الموارنة المدفوعين من زمرة المفتنين يشاركون جريدة الايكودي باري في اقبح حملاتها . وكان يقول سراي :

« يجب ان تؤخذ الظروف الحرجة التي اصطدم بها البطريرك في عام ١٩١٥ بعين الاعتبار وان كان ذلك لا يجيز التفوه ببعض كلمات قبيحة . على انه لو تسنى التقاط مثل هذه الاحاديث المشبعة بالروح الالمانية من أفواه بعض السوريين الذين يحبذون سياستي لكنت اتهمت بالخيانة من زمن بعيد . او لم يجد هؤلاء النمامون فيما بعد الوسيلة لان يمتدحوا « زعماء الدروز النبلاء » في حين ان الامر يتعلق بقتلة جنودنا وهم يعلمون جيداً ان هؤلاء السفاكين قد حكم عليهم غيابياً بالاعدام مراراً عديدة كما انهم مقتنعون رسميا بانهم مدفوعون بالاموال الاجنبية »

تطبيق صك الانتداب في لبنان
وجنرال افرنسي يحرض على العصيان

منح الجنرال غورو لبنان الكبير نظاما سياسيا يجيز تشكيل مجلس تمثيلي وتعيين حاكم افرنسي يسميه المفوض السامي (وهذا لا يتوافق وروح ميثاق عصبة الامم) فلما وصل الجنرال سراي الى بيروت اعلن بان الحاكم الفرنسي سيبدل بحاكم وطني يعينه المجلس التمثيلي وكان ذلك اكبر دليل عَلَى ثقة السلطة بالمسيحيين الذين بفضل أكثرية الاصوات التي يملكونها يستطيعون انتخاب الرئيس الذي يريدونه ٠

ولكن الافق السياسي بدأ يتمخض منذراً بقرب نشوء أزمة من الازمات التي وان كان لا يجب المبالغة في تقدير اهميتها ، الا أنه لا يحسن أيضا نكران نشوئها ٠ وكان على المجلس التأسيسي أن يقدم للمفوضية قائمة مشتملة على اسماء ثلاثة لبنانيين وهي تنتخب من بينهم حاكم الدولة أما الجنرال فكان عازما على الاستغناء عن خدمات الحاكم الحالي الجنرال فاندنبرغ عزماً أكيداً ولما كان هذا القرار مسيئا بحق فاندنبرغ أرسل هذا الى الحكومة انذاراً فظاً وفي الواقع

يعتبر بلاغاً نهائياً صحيحاً ولكن رغم الأوامر الواردة من المسيو هربو علىَّ حضرة الحاكم فهو لم يزايل بيروت بل أخذ يحرض علناً على مقاومة خلفه . وأمثال هذه الأمور لا يمكن التساهل بها إلا في فرانسا .

قال سراي : « إن كنت منذ وصولي أخطرت الجنرال فاندنبرغ باستحالة بقائه في منصبه فذلك لأنني كنت أنفذ المهمة التي عهد الي بها »

وكان من الشاذ أو على الأقل من الأمور المخالفة لروح الانتداب أن يشاهد على رأس حكومة لبنان الكبير قائد افرنسي من الجيش الاحتياطي نظير حاكم شاءت صداقة الجنرال ويغان أن تسبغ عليه نعمة إيراد هذا المنصب في حين أن الدولة السورية الأقل رقياً والأقل نفرنساً يحكمها رئيس سوري .

ثم إن هذا الحاكم السابق كان يعمل على كسب كراهية اللبنانيين بتصرفاته السيئة — من ذلك أنه لكي يظهر تفوقه بالفعل كان يأمر خادمه بأن يضرب بالسوط أي لبناني لا يسرع بافساح الطريق لدى مروره — ولم يكن لهذا الخادم وظيفة أخرى أجل من هذه الوظيفة ، فأعمال

هذا الرجل تدل على غرابة عقليته التي يروون عنها في سورية أقاصيص وحكايات ولكني أفضل السكوت عنها .
وبقي فاندنبرغ مصراً على عدم مبارحة البلاد حتى تبلغ أمر المسيو هربو بالسفر ، عندئذ أذاع على (شعبه) بلاغاً مضحكاً وعده فيه بالعود القريب .

ومن المدهش أن تكون هذه الأعمال « الباهرة » الجديرة بلفت نظر أطباء الأمراض العصبية مجلبة لصاحبها أكبر مقام في مصاف الحائزين أوسمة جوقة الشرف الرفيعة الشأن ؛ ولا ريب أن الحكومة أرادت أن تكافئه على المصاعب العديدة التي أنشأها للجنرال مراي بإثارته القلاقل (على الطراز الشرقي) ضمن المجلس التأسيسي اللبناني بحيث أسفرت النتيجة عن استحالة اتفاق أعضائه على اسم واحد مما دعا الجنرال مراي الى الإقدام على تعيين حاكم العلويين السابق المسيو كايلا حاكماً على لبنان الكبير بصورة وقتية الى أن تتاح فرصة أكثر مناسبة لتعيين الحاكم الوطني .

وقد أثار هذا التعيين الذي قاومه حزب الجنرال فاندنبرغ بكل قواه حملات عنيفة في الصحف الاكليريكية كان القصد الواضح منها زعزعة نفوذ فرانسا .

حرية الصحافة

كانت الوزارة الخارجية (او الكاي دورساي) اول من طلب الى الجنرال سراي اتخاذ التدابير الحازمة لعدم السماح بالحمل على الدولة المنتدبة ، ولكن الجنرال لم يلجأ الى تدابير استثنائية او قوانين جديدة ضد الصحافة رغم ثرثرتها وهذيانها . وقد كتب إليّ سراي كتابين في ١٩ شباط واول آذار ١٩٢٥ اولها يتعلق بمقال نشر في جريدة الاوريان ، والثاني يختص بنظام الصحافة بوجه عام :

في ١٩ شباط

نشرت جريدة الاوريان في عددها المؤرخ في ١٦ كانون الثاني مقالا صدر في احدى الجرائد الباريسية تحت عنوان « ماذا يحدث في سورية ؟ » يقول فيه المحرر اننا تنازلنا عن جزء من الاراضي السورية تجاه الموصل بدعى « منقار البطة » ويحوي منابع غازية ، ثم انه أورد مذكرة يطلب فيها ايضاحاً عن هذا التصرف ، واضاف في منتصف

المقال أننا عزمنا على التخلي عن اراض اخرى في جهة فلسطين تشتمل على سكة حديدية وشلالات وقد يكون فيها منابع للنفط — فمن هنا يتضح لك مبلغ الانتقاد الذي يثيره الرأي العام . ومثل هذه الامور التي لا يهتم لها أحد في فرنسا ، لها هنا اهمية عظمى . فالجنرال غورو كان قد وضع نظاماً خاصاً للصحافة من بعض شروطه ايداع تأمين قدره ٥٠٠ ليرة سورية اي ١٠٠٠٠ فرنك والحقُ بوقف الصحيفة والغائها في بعض الاحوال . وعلى الاخص اذا كانت الحملة ترمي الى مس العلائق الدولية . ولما كانت هذه الحالة تنطبق على جريدة الاوريان فقد اوقفتها في حين انني كنت ارفض دائماً اجراء ذلك بمناسبة الحملات والطعون التي كانت توجهها الي - ولو كان سلفي لاوقف الصحيفة عشر مرات لمثل هذه الاسباب وقد بلغ عددُ التوقيفات في عام ١٩٢٤ الستة عشر ، ولم يحرك احد في الصحافة الباريسية ساكناً بل كانوا يصفقون ولكن المفوض السامي لم يكن وقتئذ . . .

« سراي »

اول آذار ١٩٢٥

« اوقفت صحيفتان فقط ـ وفي عهد ويغان لم يُثر مثل هذه الضجة مع ان وقف الجرائد كان متواليا . اما كايلا فلم يبتدع شيئا وكانت الجرائد التي تحمل عليه لصرامة العقوبات (الحبس او الغرامة) توقف . وانما قبل ذلك تنشر القرار الذي اصدره الجنرال ويغان في هذا الموضوع وتذكر العقوبات »

« وقد ارسلت سائر الصحف برقية ترد فيها على الاحتجاجات الاثنتي عشرة صحيفة ومن ضمنها صحيفتان احتجبتا من زمن طويل واربع صحف تظهر يوميا وتصدر ٥٠٠٠ نسخة والصحف الباقية تصدر ١٧٠٠٠ عدد فتأمل »

وعندما ادرك اللبنانيون بانهم خدعوا تلاشت الحملات من تلقاء نفسها سريعا وتبدلت الحالة بشكل غريب فبقدر ما كان التهجم على الجنرال والحاكم يشتد في فرنسا كانت الصحافة المحلية تخفف لهجتها وتنضم تدريجيا الى ممثلي فرنسا في لبنان .

ويمكن القول إنه لم يبق في أيار ٩٢٥ في لبنان للمعارضة من أثر .

اصلاح نظام الانتخاب

أو الموظفان القدوة

اقترح الجنرال سراي على الكاي دورساي بناء على تقرير الحاكم « كايلا » إصلاح نظام الانتخاب للمجلس التمثيلي وهو الإصلاح الذي كانت تترقبه أغلبية الرأي العام ، ويتعلق بجعل الانتخاب مباشرة على نظام القائمة بدلاً من نظام الدرجتين والنسبة الطائفية الذي يسهل تدخلات الحكومة . فهو يضمن على كل حال بعض الصدق في عملية الانتخاب (ولا يجب أن نتطلب أكثر من ذلك ولا سيا في الشرق) ويرضي الرأي العام بأسره والصحافة أيضاً (ما عدا جريدة الأوريان) .

وقال سراي : « كنت أرمي من وراء ذلك الى قطع دابر النزاع العنيف القائم بين الطوائف الدينيـة ، وحمل اللبنانيين على الاهتمام بمصالح بلادهم العامة ، وكنت

أريد أيضاً تجنب فضائح الانتخابات السابقة التي دفعت المفوضية العليا الى أن تنفق في سبيل انتخاب مرشحيها خمسمائة ألف فرنك من الاعتمادات السرية ، وقد صرح لي يوماً ناخب طيب القلب من ذوي النفوذ بقوله : « لا ندري من يجب أن ننتخب لأنه في عهد سلفائكم كان جميع أصدقاء فرنسا الحقيقيين يصوّتون لمرشحي الحكومة الذين يتناولون مخصصاتها » .

على أن الاصلاح الذي يتوق اليه اللبنانيون لم يرض المسيو ده كه مندوب سورية الافرنسي لدى عصبة الأمم والسكرتير العام السابق لفورو وسكرتير جريدة (الديبا) الأسبق كما أنه لم يرض المسيو ده ريفي أمين السر العام الذي حتّمت وزارة الخارجية على المفوض السامي الجديد قبوله .

وتظهر الأدلة بأن المسيو روبيرده كه رغم مهمته الرسمية أثار أكثر من حملة صحفية سامة على مراي ، وقد أذاع هذا المعتمد الغريب الأطوار في نشرات الدعاية الفرنسية التي تتقاضى الإعانات من الكاي دورساي انتقادات مرة بحق المفوض السامي ، أما آراؤه في سورية

فمروفة وهي أن البلاد في حالة من التأخر توجب الحكم المطلق وتطبيق أنظمة المستعمرات عليها ... وكان يتجاهل دائماً معرفة روح الانتداب .

وكنت مراراً أسائل نفسي عن الباعث الخطير الذي يسوغ إبقاء (طامس الانتداب) كما يسميه السوريون مندوباً لدى عصبة الأمم في حين أن سراي طلب إبداله أكثر من عشر مرات .

ولما قرب موعد الانتخابات للمجلس التمثيلي وكانت وزارة الخارجية متباطئة في إرسال التعليمات المتعلقة بالإصلاح المنتظر بعث الجنرال سراي وقد عيل صبره يسأل بصراحة الجندي الذي لا يعرف التنميق عما إذا كانت المقامات العليا تصادق على نظام الانتخابات الجديد أم لا . عندئذ استلم البرقية المدهشة الواردة من الكاي دورساي الذي يبلغ فيها ما يأتي :

« أمين سركم العام المسيو ده ريفي مجاز في الوقت الحاضر وسيصل قريباً الى باريز وحينئذ نتباحث معه في المسألة التي بسطتموها لنا وتكرموا في هذه الأثناء بالاحتفاظ بالنظام القديم لأجل الانتخابات المقبلة وأما

لأجل المستقبل فالمسيو دهربفي بوقفكم على وجهة نظرنا ».

وكان ذلك فوق احتمال مسراي الذي قرر التخلص من معاون كريه فجاوب بالبرقية الآتية :

« تفضلتم بإعلامي بأنكم عزمتم عليّ إبلاغ حضرة أمين سر المفوضية العام عن وجهة نظركم في إصلاح نظام الانتخاب للبلاد المشمولة بالانتداب وإني أسألكم بإلحاح أن تسمحوا لي بالانفصال عن هذا المعاون »

وكان الاتفاق بين الدوائر وأمين السر العام على إحباط مشروع الاصلاح ظاهراً وإنما بصورة تتجلى بها الوقاحة ، وقد أجيب المفوض السامي الى طلبه وإن كان بصورة وقتية لأن المسيو ده ربفي لم يعد إلا صحبة المسيو ده جوفنيل .

وفي وسعي أن أكتب مجلداً عن مساوئ هذا السكرتير الفريد والعبد المنفذ لأغراض الطغمة الإكليريكية الفرنسية المتطرفة فقد شوهد وقت سفر ويغان يصرح علناً والدموع ملء عينيه :

« لا أستطيع أبداً معاونة مفوض سام آخر » ولكنه عاد عن رأيه وأخذ ينتفع من الفترة القصيرة التي تخللت

صفر ويغان ووصول خلفه وذلك أنه سمي مفوضاً سامياً بالوكالة بضعة أيام فأوحت له بصيرته بتجديد عقود جميع الموظفين الإداريين في المفوضية العليا المعروفين بمبادئهم الرجعية واجترأ على منحهم أقصى الميزات . ووقعت هذه العقود بإمضاء : «دوربفي» . وكتب إلي ساراي يقول «لو أردت التملص من بعض المعاونين الذين أعلنوا علي عداءهم منذ البدء لاضطررت إلى دفع تعويضات باهظة »

وكان المسيو دوباتي «كلام من ضمن من شملهم الحظ .

قال ساراي : «عانيت من «دوكه» و «دوربفي» من المتاعب أكثر مما عانيت من أدهى اليسوعيين» . فهؤلاء هم الأشخاص الذين كانوا يعاونون ساراي في سورية .

أما الانتخابات فقد أجريت بمقتضى النظـام القديم ولكنها دلت على فوز سياسة الإصلاح التي اقترحهـا ساراي رغم الحملات العنيفة التي أثارها افرنسيو الايكو - دوباري الأنقياء . وقد كلفت الخزينة هذه الانتخابات خمسة عشر ألف من الفرنكات وبذلت بموافقة الكاتب دورساي على عضد جهود أحد المرشحين المعوزين الذي يمثل الفكرة الفرنسية الحقيقية في الشرق .

الكلاب تنبح
والقافلة تسير

في شهر حزيران ١٩٢٥ كان اشد خصوم الجنرال سراي والحاكم كايلا من اللبنانيين قد استميلوا تدريجا الى سياسة الاصلاح والمساواة السياسية وقد يكون المسيو كايلا ارضاء لاصدقاء سراي عجل بالتقرب من الد خصومه بالامس .

وقد تعرض سراي مرة اخرى للدفاع بسخاء عن هذا المساعد الذي كان يجهل حتى اسمه لما وطئت قدماه ارض بيروت والذي منحه فيما بعد تمام ثقته .

ولا تزال امامي تواصي الكاي دورساي وبعضها رقيق والبعض جازم وكلها تتعلق بالتخلص من كايلا وتتضمن حججاً وجيهة .. اليس هو الذي اورد بوقاحة في احدى خطبه ذلك المثل المأثور : « الكلاب تنبح والقافلة تسير » على انه كان اشد ذكاء من ان لا يحسن التمييز بين العامة المخدوعة من اللبنانيين وبين زعماء الفتنة

من بعض القسس الدساسين الذين كان دأبهم ترقب احسن الفرص لاستئناف الحرب المقدسة الموحى بها من باريس على سراي ، وكتب سراي يقول : « ما زلت في نظر الطبقة التي تدعي بانها صفوة الامة ذاك الوحش الضاري الذي ينطق في خطبه الرسمية باحكام من الطراز الآتي :

« اذا لم تكن وصاية عصبة الامم الناشئة حديثاً أهلا لان تضمن للجميع نعمة الحرية العظمى افليس من الواجب على فرنسا ذاتها ان تجاب للشعب الذي اوكلت بحمايته هذا المبدأ الاساسي للعدل والمساواة ؟ »

وقد تساهلنا في لبنان بافتتاح مدارس اسلامية دون ان نتوانى في شؤون المعاهد الكاثوليكية وعاضدنا التعليم باللغة العربية وشجعنا مشروع البعثة العلمانية الباهر ، فعدّ علينا ذلك في نظر المتعصبين جنايات لا تغتفر .

وهذا ما حدا بكايلا بين عشية وضحاها لان يظهر بمظهر الظرف المتناهي ازاء خصوم المفوض السامي الالداء الذين نالوا من كرامة فرنسا بقذفهم في شخص ممثلها وان يبالغ في اكرامهم . ولم يكن يخفى عليه ما استغلته بعض الصحف الفرنسية والانكليزية من الفوائد بفضل الانباء

الكاذبة التي كان يذيعها المتعصبون في لبنان ٠

وطلب سرايي بصراحته المعتادة الى كايلا ايضاحا وافياً عن تصرفاته فحاول هذا ان يسكت عن الجواب ثم قال مداعباً :

« ما العمل وأنا بحاجة الى الغفران اكثر منك لانني ماسوني »

انما سراي لم يقتنع بهذه النكتة وكان يقول :

« لا يجب ان يطلب من الناس ان يكونوا دائماً متفقين فيا بينهم ٠ ولذلك لا اريد ان احفظ من علائقي بكايلا سوى ذكرى الكفاح المشترك ضد التعصب وعدم الانصاف في لبنان » ٠



سياحة اللورد بلفور

أتاحت الفرصة لفرنسا في عهد ادارة الجنرال سراي جملة مرار لان تثبت بالفعل للانكليز انها في الشرق كما في سائر اطراف المعمور لا تنفك حافظة ذكرى الحرب ولا تنسى التعاون الصادق فيما بينهما

وقد قدر للورد بلفور ان يبلو ذلك خلال سياحته في فلسطين اذ كان عائداً من القدس بعد الفوز الباهر الذي صادفه بقضاء مهمة تمثيل بلاده (وهو الحامي المخلص لليهود) في حفلة افتتاح الجامعة العبرية (كيف تتقلب الايام !!.)

وقد اصر اللورد على المرور بسورية في طريقه الى اوروبا رغم التحذير الصريح من لدن السلطات الفرنسية ، واليك ما كتبه الي سراي عن هذه المجازفة :

« قوبلت هذه الرحلة بالاحتجاجات من جانب المسلمين

وبعض المسيحيين الذين لا يستطيعون إبطال ما اعتادوه من نسبة كل شيء الى الدين بدون أن يفكروا بأنهم يوقظون ذكريات ماضٍ قديم ملوء المشاحنات ويذكون روح التعصب والشقاق الذي يعود بالضرر عليهم وعلى بلادهم »

وكانت هذه العبارة : « فلسطين للعرب والبلاد العربية للعرب » خاتمة المنشور الذي أذاعوه توقعاً لمقدم اللورد بلفور . وهي تدل على ما تضمره الحملات التي يرسمها السوريون من العداء لليهود .

وقد تألب بعض من لهم المام بالشؤون السياسية حول ذاك المسلم المفكر الذي وهو يخطب في مواطنيه كان يلقي هذه الأسئلة : أهذه هي النتيجة التي تسعون وراءها أيها الكاثوليك الذين لا يتوبون والمسلمون الذين لا يتحدون ، أتريدون جلب العواصف والأهوال بانشاء دولة هي في حكم المولود ميتاً ؟ »

وكان مرور اللورد بلفور الاشارة الاولى للقيام بسلسلة من التظاهرات التي لم تسفر عن نتائج عظيمة سوى قفل الحوانيت وصدور الجرائد ضمن اطار اسود

وعطلة التلاميذ ولم يبدأ الهيجان في الطرقات الا بعد زيارته للجامع ولكني اوعزت بقمعه في الحال وتم ذلك دون مشقة ولا عناء ولم يفقد أحد خلافاً لما شاع وذاع . عليَّ ان هذه الحركة الغريبة كانت موفقة في اثباتها ضلال الانكليز في معتقدهم اذا صحت رواية بعض الصحف بانهم سيخلفون الفرنسيين . . وقد دلت ايضاً على اننا لا نطيق الاضطهاد ولا نصبر على حركات العداء ضد اليهود وقد أراد بعض مديري الشغب ان يهاجموا حي اليهود في دمشق فارسلت اليه حالا مفرزة من الجنود السباهيين مع سيارة مدفعية واحتلته ولم يقع أي حادث . أما اللورد بلفور فقد ادرك المعنى الذي سينسب الى وجوده في سورية . ولكي يزيل علة الاضطرابات بارح دمشق خفية الى بيروت ومنها ركب البحر في الحال الى اوروبا . وما فطن هذا الوزير السابق الى كونه من رجال الدولة وان الواجب عليه بهذه الصفة أن يعمل على المحافظة على النظام أو إعادة النظام المختل الى نصابه الاّ بعد فوات الوقت ، وتذكر أيضاً ما للاتفاق الصادق

بين فرنسا وانكلترا وتعاونهما التزبه في سائر الأطراف من الفوائد العظمى » .

ولم تشأ فرنسا ان تستثمر هذا الحادث لتعكير جو العلائق الودية بينها وبين الجارة المنتدبـة بل بالعكس سلكت سلوك الصديق المخلص .

وسنرى فيما بعد كيف كانت مكافاتنا .

هنري بوردو والحقيقة

سألني مرافي في أحد الأيام على حين غرة :

« أقرأت مقالات هنري بوردو ؟

— « جرّبت أن أقرأها بعض الأحيان . »

— « خذ وانظر الى هذه فانها من أنزه المقالات »

وناولني الجنرال مقالاً مؤرخاً في كانون الثاني ٩٢٥ بقلم الكاتب (الخالد) بتعقيده يبدأ هكذا :

« كان السلام مخيما على سورية في عهد غورو وويغان »

ويعد بضعة أسطر :

« ولما أتيت الى سورية منذ ثلاث سنين في عام ١٩٢٢ لم تكن هناك حركات حربية والبلاد هادئة . »

وقال لي مرافي « أنظر الى هذا النوع من الكذب الرسمي . لأنه اذا ادعى هذا السائح (الخالد) بأنه كان موجوداً في سورية فليس بوسعه أن يتعلل بجهله الامور . »

إن العمليات الحربية خلال هذا العام ١٩٢٢ لم تقل

عن ٣٥ عملية في سورية !

وكان القتال على الأخص في جبل الدروز . ففي ٢٢ تموز ٩٢٢ كانت موقعة (أصلحه) وفي ٧ آب موقعة (يزد) وفي ٢٣ تشرين الأول موقعة (سمي)

ونظم الجنرال ويغان قوات للقمع في منطقة البقاع وأرسل فرقة الى الموارنة وقمع فتنة الحوارنة (وكم كانوا يتشدقون ويكتبون لو حدثت هذه الفتنة في عهد الجنرال سراي) .

ولكن السائح المسيحي الكبير كان يظن من المشين بحقه أن يقلق الرأي العام في عهد غورو وويغان بافشاء سر الوقائع الحربية (قبل الاوان) لئلا يعرّض من يقوم باذاعة أخبار سورية السيئة لخطر المساواة بينهم وبين أسافل الشيوعيين .

فما هو الباعث الخطير الذي اضطرك إذاً يا بوردو أنت وصحافتك الصالحة الى المبادرة قبل التيقن الى إذاعة الأنباء الكاذبة التي صنفتها المكاتب المضادة لفرنسا في القاهرة والاسكندرية بأحرف كبيرة ؟.

كنت تعدّ نفاقا في زمن ويغان أن يباح بعدد

خسائرنا الذي كان مجهولاً جهلاً تاماً . أو لم يجرأ « دزيره فري » إزاء هذا النقص في الإيضاح على التأكيد في مجلس النواب بقوله : « لم تهرق دماء البتة في سورية على عهد ويغان » .

وهل أخبر الشعب يوماً بأن الأراضي السورية ابتلعت في أحشائها إبان حكم غورو أكثر من ٥٠٠٠ آلاف جندي افرنسي (بحسب الاحصاء الرسمي) .

وهل علم الشعب يوماً كم كانت المجازر البشرية الأخيرة في مراكش أشد هولاً وفظاعة من حوادث السويدا !

وفي عهد سراي (الذي اضرم النار في سورية وصبغها بالدماء لمجرد اللذة) كم كان عدد الالوف الذين وقعوا في حومة الوغى ! هو عدد يثير الاسف طبعاً (ولكن اليس من الكفر الاغراق في تجسيمه !) اذ هنالك فوق الطرقات الوعرة التي تحرقها الشمس بلهيبها وتملؤها الحصى الجبلية المسننة ٦٢٤ جنديا من جنودنا فقط لاقوا حتفهم وهذا العدد يقارب العدد الذي ضحي في عهد ويغان . — من يقول ذلك !

اي اكرام يقدم الى هؤلاء الابطال افضل من تبيان حقيقة نشوء حركة الدروز وتطورها !

ومن الجبن ان نصادف في طريقنا دسائس اكليريكية او اجنبية اشتركت قصداً او عن غير قصد في اذكاء ثورة سلطان الاطرش وتترك اصحابها في الظل والامر يتعلق بشرف جندي عظيم وضعت اعماله موضع الهزء والسخرية .

لعلهم يقولون ان الساعة ليست بالساعة الملائمة لكشف بعض المعميات .

أكانت الساعة ملائمة اذن في عام ١٩٢٤ للقيام بحملة باطلة واختلاس تقرير من التقارير التي ترسل بطريق التسلسل ونشره في جريدة الايكو دي باري ! (هو تقرير القومندان اوجاك) .

أكانت الساعة حائنة لخيانة بعض معادي الجنرال العديمي الوجدان ! الم يشعر هؤلاء بالوجل عندما اخرجوا من اضباراتهم تلك الوثائق ليغذّوا بها أفظع الحملات على رئيسهم !

واذا ما مكنتنا الوثائق الرسمية التي بيدنا من اثبات تدخل خيالة القديس جاورجيوس (الجنيهات الانكليزيـة) في ثورة الدروز فاي فضيحة شائنة نكون قد اقدمنا على كشفها !

أيجرأون على نقدنا اذا ماقلنا الحقيقة وايدناها بوثائق رسمية !

عدمنا الحيل وليس لنا سوى هذه الوسيلة لمنع النميمة من ان تحوم حول ضريح الفقيد العظيم .

في جبل الدروز

تمتد منطقة جبل الدروز الى شرق الخط الحديدي بين دمشق ودرعا وتحدها من الجنوب فلسطين وشرقي الاردن (انتداب انكليزي)

ولما وصل صراي كان الكابتين كاربييه حاكم الجبل وكاربييه الذي قالت عنه الايكودي باري كذبة وبهتانا بانه صنيعة الماسونيين كان في الواقع معينا في هذا المنصب الشاق من لدن الجنرال ويغان الذي جدّد له وقت سفره الاعراب عن رضاه بدرج اسمه في لائحة الترفيع « اول المستحقين » وبارساله البرقية الشخصية الآتية اليه :

« اليك اود ان اوجه شكري على النشاط الحيّ الذي ساعدك على انتاج ابهر الاعمال • لقد غرست حب فرنسا في جبل الدروز باظهار نزاهتها واخلاصها »

ولا شك ان هذه الشهادة بحق (صنيعة) الجنرال صراي لها بعض القيمة •

وقد يكون استهدف حاكم الجبل لبعض النقد في أعماله الادارية التي طالما كانت قاسية ولكن اصدقاء ويغان واصدقاء سراي اجمعوا على احترام الاخلاص في شخص الكابتين كاربييه الذي بفضل مساعيه احبط الفتنة التي كانت تهدد البلاد في عام ١٩٢٤ . ومن أحلى صفاته الاقدام والنشاط وحسن الدعابة فقد انشأ المدارس وخطط الطرقات ونجح بمشاريع جمة تتعلق بجلب المياه واهمها مياه السويدا وانجزت هذه الاعمال باقصر وقت فارتاح لها الاهلون . ومع ذلك فقد كان يصطدم دائماً بالصحافة وبالجمود الطبيعي لشعب يعيش على الفطرة الاصلية ويعتبر الكذب على الاجنبي من اقدس الفروض الدينية (وشعب الدروز يبلغ ١٥٠٠٠ نسمة وهو مندفع وصبور معاً ومتعجرف ووضيع يجهل التربية السياسية)

وكان الدروز قبل الحرب يخلقون المتاعب الجسيمة للاتراك وكانت الحملات العسكرية تتوارد باستمرار لقمع الفتن .

ولم ينجح كاربييه في عمله إلا بعد ان اتخذ خطة الحزم والشدة تجاه اسرة الاطرش اقدم أسر الجبل ولا

سيا من كان اشدهم خطراً سلطان الاطرش الشهير والزعيم الدرزي النبيل حبيب الابكودي باري الذي نصب في ٢١ تموز ١٩٢١ كميناً اوقع فيه الملازم بوكسان مع بعض ضباط آخرين ولاقى هذا الملازم التعس حتفه بعد عذاب اليم ٠

وكان قد حكم على سلطان الاطرش بعد هذه الجناية التي تقدمتها ثلاث جنايات اخرى بالاعدام ولكنه تملص بالهرب ٠

ومن المدهش ان تعلم بان سلطان الاطرش نال العفو من لدن المفوض السامي في ٥ نيسان ١٩٢٣

وفي صبيحة اليوم الخامس من شهر نيسان ١٩٢٣ كان سلطان موجوداً في احدى القرى المجاورة للسويدا بينما كانت عاصمة الجبل تحتفل بذكرى يوم الاستقلال ويجري ستعراض باهر للفرسان الدروز ٠

وبعد الظهر بقليل انتدب سلطان احد فرسانه بمهمة لدى المسيو ترانكا الترجمان العسكري الذي كان يقوم مقام الحاكم بالوكالة ٠

وكان يرغب هذا الزعيم الدرزي (النبيل) قاتل الضابط بوكسان وصاحب العلائق المشتبهة بزعماء الحركة العربية

والمحرضين اللاجئين الى شرق الاردن الذين يتمعون بعطف اصدقائنا الانكليز في ان يشترك في الاحتفال . وهكذا فان هذا المحكوم بالاعدام ارسل يطلب (الامان)

ولم يتمالك المسيو ترانكا من اظهار فرحه الشديد بهذا الخبر ولا عجب فكان بين شفتيه اكبر المفاجئات التي تزيد في بهجة الاحتفال : عودة السفاك الشهير الى الى الحظيرة الدرزية .

ولم يشذ المسيو ترانكا عن القاعدة المتبعة باطلاع رئيسه الاداري المسيو شوفلر مندوب المفوض السامي بدمشق الذي كان موجوداً في الاحتفال على الحادث العظيم فحافظ الموسيو شوفلر على رباطة جأشه واجاب :

« اود ان اقبل ندامة سلطان ولكن بدون عفو عاجل فهو مجرم يسلم نفسه وهو من اصحاب السوابق الشديدي الخطر ولا اريد ان يحضر اليّ قبل ان يدفع الدية (ثمن الدم المسفوك) .

فقال المسيو ترانكا : « سيدفع الدية بلا ريب ولكن لا يجب ان تفهمه ذلك لئلا نبوء بالفشل »

فأجاب مندوب المفوض السامي : « تصرف بالامر على

مسؤوليتك التامة فقد اوقفتك على شعوري »

وشوهد على أثر ذلك السفاك الشهير قادما الى الحفلة وسط عجاج من الغبار يتيه عجبا ويحوطه فرسانه الهمج . وكانت عيونه ذات لون سنجابي غريب وتقاطيع وجهه دقيقة التكوين تختلف اختلافا عظيما عن شكل حاشيته الهمجية .

وفي الحقيقة ان شخصية هذا الزعيم الدرزي كلها الغاز فيتكلم بايجاز وبنبرات حادة تختلف عن نسق مواطنيه ويساير دائما محدثيه حتى ولو كان مصمما علىّ الفتك بهم — مربع الاغراء ، تارة مسالم وطورا محب الانتقام .

وقد صورت له الاحلام يوم كان في شرق الاردن ان ينشئ امبراطورية رحبة تتألف من البلاد الدرزية والسورية ويكون هو رئيسها الاعلى

وشجعه على المضي في هذه الاحلام بعض الضباط الانكليز — والحالة كانت تقضي باتخاذ سلطان اداة لتدمير الانتداب الفرنسي . ومن اجدر من سلطان بهذا العمل !.

وكان سلطان يقضي اصفى اوقاته بالخصام مع اسرته حيث كان بعض افرادها المخلصين لفرنسا يتحولون مرة في العام الى باريسيين فكان يتميز غيظا للاسفار التي يقومون بها .

ليس من يجرأ الآن على مطالبة سلطان بالدية فالدروز بعددهم الوافر — وقد اثار وجوده بينهم روح الحماس — قادرون لادنى سبب على قلب فرحهم الجزيل ترحا وعندئذ يسفر دفع الدية عن اعلان سلطان في الغد التالي زعيما لثورة جديدة .

ولما علم الجنرال غورو بهذا الاستسلام المموّه غضب غضبا شديداً وارسل البرقية الآتية من باريس حيث كان يقضي اجازته :

« ان سلطان الاطرش مجرم وخصوصاً شديد الخطر فلا يجب ان يدخل الجبل فيلزم نفيه بدون إبطاء . »

على أن نصيب هذا الأمر الوارد من المفوض السامي الجنرال غورو كان الإخفاء ولم يعبأ به .

ولا نرغب في البحث هنا عن المسؤولية المترتبة في النتيجة على مانحي عفو « الظفر » لمن أصبح فيما بعد روح جميع الثورات ولكن ما ذا يقول أصدقاء الجنرال ويغان لو أن إدارة الجنرال سراي اقترفت مثل هذا الاهمال الجسيم ! ....

وهل أدرك أولئك الذين كانوا يتغنون بذكر نفوذ فرنسا نتيجة هذا العمل العظيم !

وكان سلطان قادراً على التذرع بأي عذر كان للقيام بحركة ثورية في الجبل ولما كانت الفرصة سانحة لغياب الكابتين كاربييه منذ ٢٨ أيار بإجازة صغيرة فأراد اغتنامها وبناء على ذلك أخذ ينظم بمساعدة أصدقائه شكايات عديدة بحق كاربييه ولم يفته أن يمزج بأسلوب رشيق هذه الشكايات بمدح الكابتين رينو الذي كان يقوم بالوكالة عن حاكم الجبل · ويسوءني جداً حتى النظر الى الماضي لأجل المقابلة بين هذين الضابطين · على أنه لا يسعني إلا إذاعة آراء الشخصيات البارزة من عسكريين ومدنيين الذين عرفوا جبل الدروز واطلعوا على تاريخه وهي آراء مجردة عن كل شغف سياسي ومجمعة على أنه « لو وجد كاربييه بالسويدة في تموز ٩٢٥ لما انفجرت الثورة أبداً · أو لم يعترف الكابتين رينو بعد ذلك بأن سلطان خدعه »

وكان سلطان يطلب بصفة الآمر تعيين حاكم وطني وتطبيق المعاهدة التي عقدت في عهد غورو عام ١٩٢٠ ووقعها سكرتيره العام المسيو دوكه ·

وهذه المعاهدة الشهيرة التي كانت الابكو دي باري تلوح بها في وجه سراي مثيرة حولها الصخب والضجيج

لم تكن موقعة إلا من رئيس ديني واحد يأتي بعد سائر الرؤساء مقاماً ومن سبع عائلات فقط أما الأسرتان الأرفع شأناً في الجبل فقد رفضت التعاون مع آل الأطرش .

ولم يكن في وسع الجنرال سراي أن يحترم مثل هذه المعاهدة المجهولة لدى الكاي دورساي والتي كان يتجاهلها خلفه الجنرال ويغان ولم يعلم بها سراي إلا عند ما قدمها له أحد أفراد آل الأطرش طالباً انفاذها وهنا يجدر التساؤل عن الصفة التي اتخذها المسيو دوكه لتوقيع هذه المعاهدة وعما إذا كان ذلك بتفويض من رئيسه الجنرال غورو أم بدون علمه ولماذا لم يعلن الكاي دورساي بها .

لغز من الألغاز السورية ... ولكن عند ما تبدو المساومة على قصاصة الورق ويبدأ تمثيل دور النصب والاحتيال على النغم الباريسي وعند ما تبرز الايكودي باري المعاهدة الى الوجود ، حينئذ يتجلى للعيان ولأول مرة هذا الاتفاق المؤثر الذي يوجدنا بدون انقطاع أمام اتحاد مقلق بين جميع أعداء الانتداب كحزب الجامعة العربية والعناصر المشتبهة والمرعبة والزعماء الدروز النبلاء قتلة جنودنا وأشد الوطنيين تطرفاً من الفرنسيين وبعض الضباط الإنكليز .

واخذ سلطان الاطرش يضاعف مناوراته . اما سراي فكان يقول :

« ظن الطرشان تحت تأثير اقوال بعض الجرائد التي تستمد معلوماتها من المنتديات الرجعية في باريس اني قدمت الى سورية لهدم مابناه سلفي عليّ خط مستقيم واني عازم على منحهم حاكما وطنيا يختارونه بانفسهم . ولما لم يكن من داع لذلك تجلت روح الرياء والخداع الوراثي الكامنة في صدورهم بحقيقتها الناصعة وقاموا بحركات العصيان مغتنمين فرصة غياب الكابتين كاربييه في فرنسا . وكنت أفكر أن أحدث كاربييه وقت رجوعه عن الحملات التي وجهت اليه كما أني كنت عازما لانقاذ الموقف أن أبدله بضابط أعلى رتبة على أن يعود أولا الى السويدا حفظا لكرامة فرنسا حتى لا يقال بانها خضعت لزمرة من المهيجين الذين ربما كانوا يطلبون بعد ثلاثة اشهر أن ترحل الحامية الفرنسية عن الجبل ويستمرون بدون خجل على ترديد حبهم لبلادنا .

وقال سراي أيضاً : « لا أندم على ما فعلته لاني لو كنت بدلت كاربييه لكان المسيو ده كربلاس حول مدافعه الى ناحية أخرى ونسب سبب الثورة ولا ريب الى هذا التبديل ».

***

في ١٢ حزيران ١٩٢٥ طلب وفد من الدروز الى الجنرال سراي برقيا أن يمنحه مقابلة خصوصية . وهـذا الوفد المؤلف من الزعماء الدروز النبلاء كان يضم بين أعضائه اثنين من قتلة الملازم بو كسان وثلاثة من أشهر أعداء فرنسا الذين كانوا محكومين بالاقامة الجبرية في عهد المفوضين السامين السابقين ولص واحد ... الخ وقد أتى خصيصا ليعترض على عودة الكابتين كاربيه الى حاكمية الجبل بينما كان يتظاهر بتعلقه الشديد بفرنسا . على أنه كان في حيازة المفوض السامي مذكرة صادرة في ٥ شباط ٩٢٥ من المجلس (الجمعية العمومية في جبل الدروز) وهذا نصها :

« ان المجلس المنتخب بالتصويت العام والمشكل من زعماء كافة العائلات في الجبل يؤيد بالاقتراع السري وبالاجماع رغبة جميع اهالي الجبل في المحافظة على استقلاله وعدم رضاه عن الحاقه باي دولة من الدول ويجدد ثقته المطلقة بالحاكم الذي يسير بالجبل الى الرقي » .

وقد احتج المجلس في اجتماعه بتاريخ ١٦ آذار على الحركة التي اثارها بعض الزعماء بقوله : « ان هؤلاء الزعماء لا يمثلون الشعب مطلقا لانه لم ينتخبهم فهم والحالة

هذه يمثلون مطامعهم الخاصة ٠ ٠

وفي ١٠ نيسان بعث آل عامر (زعماء الجبل الشمالي) برسالة الى المفوض السامي يحتجون فيها على الحملات المثارة ضد الكابتين كاربيبه ٠

وفي ١٤ نيسان اجتمع الرؤساء الروحيون ورؤساء العائلات الكبيرة وارسلوا برقية الى المفوض السامي كرروا فيها « التماساتهم العديدة » بابقاء الكابتين كاربيبه الذي ادى للجبل خدمات جلى بحسن ادارته وبفضل الاصلاحات التي ادخلها اليه وتوطيده الامن فالمفوض السامي وجد نفسه ازاء عصبة من الدساسين انكرتهم الاسر الكبيرة وكذلك المجلس التمثيلي الناشئ عن انتخاب الشعب الدرزي فاذا استقبلهم تعرض للظهور امام جبل الدروز بمظهر من من اعطاهم الصفة الرسمية التي يطمحون اليها ٠

على أنه كانت توجد سابقة لحادثة مثل هذه الحادثة تتعلق بآل الاطرش أيضاً ٠ وهي أنه في أول آب ٩٢٤ ورد كتاب على المفوض السامي من حمد بك ونسيب بك وعبد الغفار بك في دمشق يطلبون اليه أن يخصص لهم موعدا للمقابلة في حلب وهذا ما ورد في الكتاب : «نأتي للشكوى من الكابتين كاربيبه لكي يشرع في اجراء الانتخابات لحكومة الجبل»

فأجاب الجنرال ويغان في كتاب رقمه ٤٤٠٠ وتاريخه ٦ اب : « اعطيت مندوبي التعليمات اللازمة فلا فائدة من مجيئكم لحلب » .

وعلى ذلك جاوب الجنرال صراي بكتاب في ١٣ حزيران مشيراً الى موضوع المقابلة وقائلا انه من العبث تحمل مشاق السفر . ولكن الوفد الدرزي لم ينتظر الجواب بل كان في خلال ذلك قدم الى بيروت وحضر الى المفوضية العليا فاستقبله رئيس دائرة الاستعلامات وصرّح له بأن المفوض السامي لا يستطيع قبول شكايات بحق حاكم غائب عن مركزه وأنه في حال عودته يقابل الوفد بكل سرور .

وبعد مضي أسبوع استلم المفوض السامي احتجاجاً من ٣٠ قرية في الجبل على مناورات آل الأطرش وعلى الحملات الموجهة ضد الكابتين كاربييه فلم يقرر الاقدام على رفض مقابلة الوفد إذاً الاّ بعد امعان دقيق في الحالة وما كان في وسع المفوض السامي أن يعير أذنا صاغية لمكائد عائلة دساسة أجمع المجلس التمثيلي على الاقتراع ضدها .

***

بدأت في ٣ تموز بمناسبة اجتماع المجلس التمثيلي حركات خطيرة في السويدا .

وكان الواجب قمع هذه الحركات في مهدها وفصل الثائرين عن زعمائهم بابعادهم عن الجبل . ولما كان اللجوء الى القوة علناً يعرض الحالة لخطر الثورة وذلك ما يلزم اجتنابه فالأوفق اذن أن يفصل الطرشان عن مناصريهم

ولما كان من اللازم الوقوف على ميول هؤلاء العصاة وفرز الصالح منهم عن الطالح الذي يمكن ردعه عن غيه فقد وجهت لهم الدعوة بالحضور الى دمشق . فحضر منهم عبد الغفار وحمد ولم يحضر متعب بدعوى أنه مريض وأما سلطان فلم يجاوب بتاتاً — وتيسرت لنا بهذه الوسيلة معرفة خصومنا الحقيقيين ولكنها استثارت السخط والحنق وهاك نص الدعوة الذي بنت عليه الابكودي باريس حجتها بأن سراي استدرج الدروز الى كمين .

بيروت في ١١ ايلول ١٩٢٥

المفوضية العليا
الغرفة

« من الجنرال سراي المفوض السامي للجمهورية

الفرنسية في سورية ولبنان . »

« الى حضرة المندوب لدى حكومة الدولة السورية »

« أرجوكم أن توجهوا الدعوة الى زعماء الحركة ومن ضمنهم حمد بك ونسيب بك ومتعب بك وعبد الغفار بك وسلطان الأطرش الى دمشق لكي يبلغوكم مطاليبهم . وأرجو افهامهم في الوقت نفسه بأني أعتبرهم مسؤولين عن كل اختلال يحدث في الجبل وأضطر لأن أحتفظ بهم وأرسلهم للاقامة الجبرية في مكان تعينونه لي »

التوقيع : سراي

ولم يلجأ الى هذه الوسيلة الا بعد إمعان الفكر . ومن يجيل النظر في تواريخ الوقوعات لدى دوائرنا الاستعمارية يراها محشوة بمثل هذه الحوادث ولو جرت مسألة كهذه في الماضي لكانت بادرت دائرة الاستعلامات الى تسويتها تسوية تامة باعتبار أنها من الشؤون المختصة بها وهي نظرية صائبة لأن بعض التدابير التي تتخذها دوائر الاستعلامات ازاء العصابات أو المهيجين الشهيرين لا تشابه دائماً ذات التدابير التي يلجأ اليها في أوربا .

وسترى هنا التقرير الذي أرسله سراي الى الكاتب

دورساي مبيناً فيه آراءه وباسطاً وجهة نظره في الكتاب الذي نشرته الايكودي باري وهو الكتاب الذي أصدر فيه تعلياته الى رئيس دائرة الاستعلامات بشأن دعوة الدروز العصاة ٠

« إن رئيس دائرة الاستعلامات كان ولا ريب يوقع على مثل الكتاب الذي نشرته الايكودي باري فالمفوض السامي الحالي هو الذي وقعه لأنه اعتزم منذ وصوله الى بيروت على توقيع جميع المقررات لعدم ثقته بالسياسة الشخصية التي اعتادت دوائر الاستعلامات أن تسير عليها » ٠

وكان الكابتن رينو قد استبدل في خلال هذه المدة بالكومندان تومي مارتان ٠ وقال سراي انه عين هذا الاخير لانه كان رئيس دائرة الاستعلامات في الدولة السورية ٠ واضاف :

« لم اشاهد اسوأ من خدمة هذا الضابط (اعني الكابتن رينو) فهو في جميع تقاريره يصور الحالة صورتين حسنة وسيئة وينتهي بحيث يصبح الحق بجانبه مهما حدث ويحدث بعد ذلك ٠

الحركات العسكرية في الجبل

١٢ تموز — ١٠ تشرين الاول ١٩٢٥

اراني بكل اسف مضطراً لان اعيد الآن ذكرى ابادة فرقة نورمان وكسرة فرقة ميشو .

وليس اشد ابتذالاً في تاريخ حروبنا الاستعمارية وبا للأسف من مباغتة جيش صغير وسط الصحراء بحملة فجائية يقوم بها عدد لايحصى من جماعة المتعصبين فما هي الا مجزرة بشرية يعقبها التمثيل الفظيع بالجثث وهـذه حكاية فرقة نورمان التي هاجها سلطان الاطرش في ٢١ تموز ٩٢٥ في طريقها من السويدا الى صلخد ولم يكن معهودا اليها بمهمة حربية .

وقد استشهد قائد الفرقة في احوال مؤثرة جدا وذلك انه حضر الى معسكره رسول من قبل سلطان قبل ان يبدأ الهجوم بساعات قليلة وانذره بهذه العبارة :

« ان كنت لا تريد الهلاك عد مع رجالك الى السويدا »

فاجاب نورمان :

« لدي مهمة ساقضيها وساتابع سيري غدا »

وهكذا كان القضاء علىّ فرقة نورمان في بدء الحرب السورية ، تلك الحرب التي اوقعوا مسئوليتها على صراي .

***

تساءل البعض عما فعله صرايـ لما علم بان سلطان كشف القناع عن وجهه ؟ والجواب على ذلك بانه تصرف كما يتصرف اي جنرال في موقفه فقد امر بتعزيز الحامية بالسويدا في الحال بان ابلغها الى كتيبة (طابور) بعد ان اخذ العدد اللازم من جيش دمشق .

ولما بلغه حصار قلعة السويدا التي كانت ملجأ الكتيبة قرر تاليف كتيبة اخرى ارسلها لها لرفع الحصار عن عاصمة الجبل .

وكل قائد يعمل بهذا العمل .

ولكن كم كان يبلغ عدد الذين كانوا يتمنون العودة في هذه الآونة الى باريس لكي يقرعوا اجراس الذعر هناك

منادين بطلب النجدة وعاملين على رفع المسئولية عن قومهم ؟

ولما كانت الثورة المراكشية في اشدها وافق الجنرال سراي قبل بضعة اسابيع على ارسال كتيبة من الصيّادة الى مراكش واستعاضها بكتيبة من الجنود المدغسكريين في سورية . فانتقده بعض رجاله على ذلك ولكنه اجاب : « انني في جبهة ثانوية واما مراكش فهي الجبهة الاساسية »

وهكذا كان موقفه في فردون وسالونيك فكان مرغما على تدبير أموره بالوسائل الواهية التي يملكها وكان يكره مبادلة المراسلات البرقية التي لا تسفر الا عن الكلمات الطيبة وأما من جهة أخرى فلما لم تكن السويدا على أبواب باريس وجب اتخاذ التدابير العاجلة لتلافي خطر الثورة .

***

وقد عزم سراي على ألا يستنجد الا بقوات جيش الشرق فقط . أما في فرانسا فهل كانوا يعلمون ما هي حالة هذا الجيش بالتدقيق ، لقد كان في أشد حالات الضعف عددا .

فهو مؤلف من :

كتيبتين سنغاليتين

كتيبتين جزائريتين

كتيبة افرنسية من جيش المستعمرات

كتيبة مدغسكرية

ست كتائب سورية

آلايين من السباهيين

ثلاثه بلوكات من سيارات المتراليوز

أربع بطاريات إحداها من عيار ٧٥

آلاي واحد للطيران

ويوازي المجموع قوة أربعة آلايات من المشاة موزعة على نحو ٢٠٠،٠٠٠ كيلو متر مربع من الأراضي .

ويعتبر هذا الجيش من الوجهة العسكرية الفنية كأنه غير موجود .. لانه مؤلف من طائفة من الجنائنية والسكرتيرين والمرافقين والمستخدمين المتنوعين ومن جيش من الضباط والجنود الذين لم يأتوا سورية للحرب والكفاح بل ليعيشوا عيشة الراحة والهدوء في ظل جنائنهم الغناء وبالقرب من حمواتهم وأولادهم وعلى الأخص بعيدين عن مراكش ..

وليثق القارئ بأني لم اختلق هذه العبارة فقد رددها على مسمعي أحد ضباط الجيش الممتازين ٠

***

ايكتب الجنرال ميشو مذكراته يوماً ، (إني لا أطلب طبعاً تلك التي تتعلق بفرقة جبل الدروز ولكني التمس رواية ما شاهده وشرح ما اتخذه من التدابير التي كانت في أكثر الاحيان ويا للأسف فعالة جدا على زعمه) لكي يذكر جيش الشرق بحقائق بسيطة كقوله : « وجد الجندي للقتال حتى في سورية والجيوش ليست حرسا وطنيا ٠ » والتمس ذلك حبا بتنوير الرأي العام وايراد المعلومات الى رجال الحربية المقيمين في شارع سان جرمان ٠

ويجدر الآن أن اطرح قضية التبعات الحقيقية على بساط البحث : من كان القائد الاعلى للجيش قبل سراي ، ومن كان قبل ميشو القائد المعاون للمفوض السامي وساعده الايمن الموكول اليه أمر تعليم الجيش واعداده للحرب ؟

ما هي تلك الادارة (غير المسؤولة) التي خصصت سورية بجيش لا يحرز من صفات الجندية الا النزر اليسير ؟

من هو المسؤول عن الحالة التي وجدها الجنرال صراي ساعة وصوله إلى بيروت ؟

وقد جاوب المسيو ده كريللس قبلي بانه : « صراي »

***

كان الجنرال ميشو هو الذي استلم قيادة الفرقة التي أرسلت لقمع الفتنة وقد استدعاه الجنرال صراي واطلعه على الهدف الذي يرمي اليه الا وهو رفع الحصار عن السويدا وترك له حرية التصرف في خطته .

وقد حدد الجنرال ميشو في التقرير الذي رفعه الى المفوض السامي عدد الجنود اللازم لهذه الحملة وهو عبارة عن ٣ كتائب و٣ بلوكات وبطاريتين ونصف بطارية وبلوكين من السيارات الرشاشة فاعطي له المدد المطلوب بعد أن جردت المواقع السورية من معظم حامياتها .

فتحرك ميشو مع جيشه ولم يبق في حلب ودمشق وبلاد العلويين وعلى الفرات من الجنود سوى آثار غبارهم .

وقال صراي : اتذكرني هذه الحالة بافعال الجبابرة التي قمنا بها في سالونيك على انني اتعزى بشيء واحد وهو أن

المارشال ليوتي مضطر أكثر مني أيضا إلى الابهام (البلف) .

***

لا أتكلم عن النكبة التي نزلت بفرقة ميشو لاني أريد أن أحترم سكوت الجنرال سراي فهو لم يرغب قط في الافضاء الي بما كان يفكر فيه ضمنا عن أعمال هذه الحملة وكيفية تنظيمها وقيادتها ولكنني اردد فقط ما سمعته في الاوساط العسكرية في سورية فهم يوجهون أشد اللوم الى الجنرال ميشو . ويقولون إنه سار بهذه الحملة يرافقه عدد وافر من الضباط الذين يكرهونه وسبب هذه الكراهية أنه كان يقاصصهم بحق كلما قصروا في ايفاء وظائفهم .

وكانت هيئة أركان الحرب التي تعاونه بحالة يرثى لها مع أنه هو الذي انتخب اسماء الذين يؤلفونها ولم يمانعه سراي في ذلك .

ولم يكن يكترث لخصمه وظن أن الامر يتعلق بنزهة عسكرية فاختار اخطر طريق توصله الى السويدا .

وثم فقد نقصته الشجاعة والحزم في مساء ٢ آب بعدم

اقراره مواصلة الزحف في اليوم التالي رغم الفشل الذي أصابه في ذات اليوم وبانه لجأ إلى استشارة سروسيه ٠

وقد نسي على الأخص في ٢ آب بانه يحارب في الصحارى وليس في الميادين الأوروبية ٠

(ولم يكن انكسار ٢ آب بهذا المقدار شنيعا كما وصفوه فالفرقة بلغت الهدف في ذاك النهار بعد أن لحقتها الخسارة ولا شك ولكنها كانت بالكاد قد اصطدمت بستمائة رجل من الدروز حتى ارتدوا على اعقابهم بعد أن نهبوا قسما من الذخائر — فلو استمر ميشو في زحفه لما صادف أحدا في طريقه وكان أيسر له أن يقطع ١٢ كيلومترا الى الامام بقليل من الذخيرة من أن يعود التقهقري مسافة ٢٥ كيلومترا ٠ أما النكبة الحقيقية فقد وقعت في ٣ آب لما شاهد الدروز في العشية السابقة تقهقر الفرقة ٠ عندئذ بادروا الى مهاجمة الغنائم جارين وراءهم من كان لا يزال متردداً أو خائفا ٠ وقد علمت الحقيقة من أفواه الدروز الذين عادوا الى الجبل بعد نهاية الثورة)

اقف هنا لاذكر ما كان يقوله لي مراي مرارا بان

الجندي السيء الطالع تقع على رأسه جميع خطايا بني اسرائيل .

لا ينكر بان ميشو اخطأ كثيرا ولكنهم جاروا عليه بالحكم وها اني ابسط امام انظار المسؤولين عن تنظيم الجيش الافرنسي وتعليمه العبارة الصغيرة التي فاه بها احد العسكريين المعتدلين وهي لدي بمثابة حكم منطقي هو الوحيد في نوعه :

« لو كان لدى الجنرال ميشو ٣ كتائب كما كان يعطى قبل الحرب وكما هو معروف عند ليوتي في مراكش . اقول ٣ كتائب من الصيادة او من الفرق القوية بمعنوياتها لكان ذهب الى السويدا مهما كانت الذهاب من الدماء وكان غدا اليوم من اكبر القواد فنا وفتحت امامه ابواب مجلس الحرب الاعلى » .

ولم يكن يجهل ميشو ما لبعض العناصر التي يتألف منها جيشه من القيمة الحربية التافهة وكان يعلم انه ليس من يعتمد عليه في هذا الجيش سوى الصيادة الجزائريين والسنغاليين فجعله خليطا من السوريين والجزائريين والمدغسكريين والسنغاليين وابقى في المؤخرة لحفظ خط

الاتصال بالقاعدة بلوكين من المدغسكريين (على ان لا يتكدر دي كريلاس) أو لم يعز هذا الصحافي اكبر اسباب الفشل الى دخول الفرقة المدغسكرية في القتال ؟

* * *

اوما القومندان اوجاك في احد تقاريره الى مقدرة الكتيبة المدغسكرية التي يقودها على القتال وهذا التقرير الذي اطلع عليه سراي لم يبلغ الى الجنرال ميشو اصلا . على ان المسيو دي كريلاس استطاع ان يقدم نسخة منه الى قراء الايكودي باري وان يؤكد بان سراي هو الذي أقدم على اخفاء هذه الوثيقة وجعل الجنرال ميشو يجهل شرطا من الشروط الاساسية التي قد كانت تهديه الى تنظيم الحملة على وجه اصلح .

هذه هي التخرصات التي يذيعونها عمداً لاثارة الرأي العام . فقد كذبت الايكودي باري بكل وقاحة وبدون حياء لان المسيو دي كريلاس يعرف جيدا بان الكومندان اوجاك وهو من ابسل القواد واعلاهم كعبا لم يكن يريد السير بفرقته المشؤومة ولكنه خدع — أو ليس هو الذي

أرسل من كميان لاجل المرابطة في حلب وليس لاجل الحرب ؟

واني اطرح هذا السؤال ايضا ولولم اكن من رجال الحرب : « تبعث هيئة اركان الحرب في الجيش كتيبة مؤلفة من الف رجل مسلحة بالمدافع الرشاشة والبنادق الرشاشة والبنادق الحربية الى احدى ساحات القتال . افلا تكون هذه الكتيبة مرسلة لاستعمال سلاحها عند الحاجة ؟ . »

ويعلم المسيو دي كربلس كذلك بأن الجنرال ميشو حادث الكومندان أوجاك مراراً وأن الكومندان أعاد على رئيسه الملاحظات التي أبداها في تقريره .

وما من أحد يجهل نتيجة هذه المحادثات وفحواها بأن يضم إلى الحملة بلوك الرشاشات المدغسكري وبلوك المشاة المختلط الحاوي عدداً كبيراً من الافرنسيين الذين يحسنون الاندفاع في خطوط النيران .

فعلى ذلك لم يكن لعدم تسليم تقرير الكومندان اوجاك أي تأثير علىَ مقررات ميشو .

وإني أذكر هنا بأنه عثر يوم عودة الجنرال سراي إلى فرانسا على التقرير الشهير مخفياً بين اضبارتين موضوعتين في إحدى خزائن المحفوظات الكائنة في دائرة أركان

الحرب الثالثة وحاوياً توقيع المفوض السامي على نص الاحالة التي كتبها بأمره رئيس أركان حربه وكلف بمقتضاها الجنرال ميشو الى استخدام الكتيبة المدغ‍كرية في قاعدة الحركات الحربية .

فهذه القصة المحزنة — عن تقرير أخفي (بصورة لا تزال غامضة) بعد إحالته بالطريقة الإدارية ووجد بعد ذلك منشوراً على صفحات الايكودي باري — لتشرف عقلية من كانوا يبتغون الحصول على (جلد سراي) ولو أدى الأمر الى النيل من كرامة فرانسا .

وأتى الجنرال ميشو بعد فشله إلى مقابلة سراي ، على أن الحالة كانت خطيرة ولم يكن بالإمكان الاعتماد على فلول الجيش للقيام بأية حركة جديدة . فما العمل إذن ! حينئذ طلب الجنرال سراي إلى باريس أن ترسل النجدات اللازمة لاصلاح الحالة .

ولو كان قائد عام آخر في مكانه لكانت أول إشارة بدرت منه قبل طلب النجدة بأن أرسل برقية إلى الوزارة بالنص الآتي :

« أضع الجنرال ميشو تحت تصرفكم » ولكنه قال :

اعتبرت نفسي بصفة كوني الرئيس أنني لا أخلو من المسؤولية وقد كان في وسعي أن أفعل كما فعل جوفر بعد موقعة شارلروى و كستلنو بعد مورهانج أي أن أتوسع في التحقيق ولكن ضميري الذي لم يسمح لي بإجراء ذلك في فردون إزاء بعض القواد الذين أعيتهم الشدائد - وكنت أقدرهم حق قدرهم — هو نفسه نهاني عن ذلك الآن » .

* * *

وصلت النجدات الى بيروت وكان على الجنرال غاملان أن يقودها الى الظفر (وكان وزير الحربيـة اقترح على الجنرال سراي ستة أسماء لانتخاب واحد منها خلفاً للجنرال ميشو فاختار الجنرال غاملان الذي كان يعزه بنوع خاص) . وأما الحملة الزاحفة على السويدا فجديرة بمثل هذا القائد وهي تحرز جميع الشروط اللازمة للنجاح إن كان من حيث العدد أو المعنويات أو الثقة العظمى بجنديها الباسل .

وقد رفع الحصار عن السويدا وكان قد حان الأوان واما الحامية فقد أخذ الضعف منها كل مأخذ رغم الجهود

المدهشة التي قامت بهـا الأساطيل الجوية التابعة للفرقة الـ ٣٩ من قسم الطيران ٠

وكان الواجب أن تبقى في السويدا بعد هذا الانتصار — ولا يظن أني أجرؤ على ابداء مثل هذا الرأي لو لم أسمعه من أفواه ذوي الكفاءة المعتبرين — وكان هو رأي مسراي أيضاً الذي أدهشه انسحاب غاملان ٠ وهنا كذلك تحمل الجنرال مسراي تبعة الحالة وقبل الاعذار التي قدمت لتبرير الانسحاب وهي صعوبة توريد المياه وتأمين إيصال الزاد والذخائر لجيش كبير ٠

وعلى كل حال فان انسحاب الجيش الى قاعدته قوّى عزيمة سلطان وجرأه على القيام بحركات جديدة فأخذ يستغلّ عقول الدروز البسيطة ويقنعهم بانكسار الافرنسيين مرة أخرى وأسفرت النتيجة عن التفاف من كان لايزال متردداً من الدروز حول علمه ذي الهلال الأحمر ٠

وفي الوقت ذاته نادت الايكودي باري باخفاق قيادتنا وضعف قوانا الحربية ٠

وبدأت جيوش العصاة تهجر الجبل للقيام بهجوم على المدينة المحبوبة درة الصحراء ذات الأسواق الغنية بالمال والسلاح : « دمشق »

قضية دمشق
وضربها بالقنابل
(في ١٨ و ١٩ و ٢٠ تشرين الأول)

قال سراي : « لا يمكن وصف الحوادث التي وقعت في دمشق في ١٨ و ١٩ و ٢٠ تشرين الأول وصفاً جلياً ما لم يروَ ما ورد في التقرير الدقيق الذي وضعه الجنرال غاملان . فقد ضمنه كل خافية و كتبه بأسلوب رشيق لم يعتد مطالعة مثله في التقارير العسكرية التي تجللها عادة روح الكآبة . واعترف بأني ما استطعت يوماً التملص من هذه العادة السقيمة عند وضع التقارير التي هي من هذا النوع » .

ولندع الكلام الآن لهذا القائد الكبير الذي أخلص النية لسراي و كان من أصدق مستشاريه في أيام الاضطراب

***

ولكن قبل ذلك أرى أن أعيد الى الخاطر ذكرى واحدة .

ذاق الجنرالان شخصياً طعم الخطر المر (والجنرال غاملان لم تسمح له رقة شعوره أن يقف عند هذه التفاصيل في تقريره) وبدأت الفتنة في ١٨ تشرين الأول نحو الساعة السابعة عشرة في الدقيقة التي وصل فيها القطار الذي أقل سراي وغاملان من جبل الدروز الى المحطة في دمشق .

وبدأ حالا ازيز رصاص البنادق يدوي في الفضاء وتحولت المدينة الساحرة التي طالما جالت الاقلام في وصف أزقتها المبرقشة وأبنيتها الأثرية العديمة المثال بدقة صنعها وغناها الى ساحة نيران يمطرها العصاة الكامنون في كل موضع من فوق السطوح الشامخة او من بين الجنائن الغناء او من وراء النوافذ الموصدة بوابل من الرصاص غير منقطع .

وفي وسط ضجيج هذه المفرقعات التفت سراي الى غاملان وقال له :

« هو ذا ما أدعوه استقبالا حماسياً »

واستعد الجنرال سراي للذهاب بسيارته الى دار العظم وهي دار جميلة وإنما يحجب بهاءها موقعها الكائن وراء مضايق من الازقة القذرة والاسواق المظلمة الملأى بالاقمشة

والسجاد النفيس والحلويات الدسمة والخناجر الحادة والبنادق التي لا يستطيع إلا الله وحده أن يفجر فوهاتها ساعة اللزوم ... ولكن مرافقه الملازم بيرو عارض في الذهاب كمن يذعن لشعور خفي وقال :

« ألا تريد يا سيدي الجنرال ان تقف أولا على ما يجري في مقر أركان الحرب ؟ »

فوافقه الجنرال على ذلك مستصوبا رأيه وسارت السيارة بسرعة الى مركز القيادة العامة وسط البلدة الأوروبية بقرب المحطة .

وبعد بضع ساعات استحال أصغر جناح في دار العظم حيث يقيم عادة المفوض السامي الى كومة من الخراب عثر في الغد بينها على جثة رجل درزي وخنجرين صغيرين وحطام رداء للجنرال ، والحجرة الصغيرة التي كنت آوي اليها انتهبت تماما ولم أجد فيها سوى بقايا من ثوب البيجاما .

فتأمل كيف كانت هداية الجنرال سراي ومؤلف هذا الكتاب في ذلك اليوم إلى طريقهما في دمشق بفضل شعور الملازم .

❁❁❁

وهاهو تقرير الجنرال غاملان :

دمشق في ٣٠ تشرين الاول ٩٢٥

الجيش الافرنسي في الشرق
قيادة الجيوش
هيئة أركان الحرب

تقرير مجمل عن الوقائع التي حدثت في دمشق في ١٨ و ١٩ و ٢٠ تشرين الاول ٩٢٥

« حدثت في يوم الاحد الواقع في ١٨ تشرين الاول اضطرابات في دمشق اوقعت المدينة في ارتباك شديد زهاء ٤٨ ساعة • وتخولنا المعلومات التي تلقيناها ان نؤكد بان مصدر هذا الشغب هو فعل بعض دعاة السوء القادمين من الخارج ولا سيما من جبل الدروز وبعض الدمشقيين الذين دأبهم اثارة المشاكل للدولة المنتدبة • وقد دخلت عصابات مسلحة احياء الاسواق والشاغور والميدان وانضم اليها ولا ريب بقصد النهب عدد كبير من السلابين المتحجبين بحجاب الوطنية من سكان تلك الاحياء ولو لا تدخل السلطات الافرنسية تدخلا حازما لساءت العواقب جدا •

وقد ضربت الاحياء التي اعلنت الثورة بالقنابل من المدفعية والطيارات فأدى ذلك الى قيام الاعيان في يوم الثلاثاء ٢٠ تشرين الاول بسعي جدي اسفر عن قبولهم الشروط التي فرضت عليهم .

ومنذ اوائل تشرين الاول وقت حدوث القلاقل في حماة ظهرت في نواحي دمشق عصابات كانت تتكاثر شيئاً فشيئاً وكانت تقيم على الاخص في القرى الدرزية الواقعة شرقي المدينة وهي (مليحة وجرمانا وجسرين) وتؤلف ملجأ حسناً .

وكذلك لما رجعت فرقة جبل الدروز الى قاعداتها قرر الجنرال قائد جيوش الشرق ان يرسل بعض الكتائب الى دمشق لتعزيز حاميتها ولامكان القيام باعمال تطهير الضواحي من الثوار وقد ساقته الحوادث الى تنشيط هذه الحركات العسكرية . وهكذا فقد وصل على التوالي الى دمشق في ١١ تشرين الاول : الكتيبة الثانية من فرقة الطيارات الحادية والعشرين .

بلوك الفرسان الشركس

بلوك السيارات المتراليوز الثامن

في ١٥ تشرين الاول — قسم من بلوك السيارات المتراليوز السادس

في ١٦ منه — قسم من بلوك السيارات المتراليوزالسادس

في ١٦ منه — مجموع بلوكات من فرقة السباهيين الحادية والعشرين

في ١٩ منه — دبابات الحملة

والنجدات التي قدمت من فرنسا وهي الكتيبة الثالثة من الآلاي ٣٥ وبلوك من كتيبة المشاة التابعة للآلاي الرابع من فرقة الصيادة للمستعمرات وصلت الى دمشق في ١٧ و ١٨ تشرين الاول .

واستدعى الجنرال قائد قوات الشرق في ٢٠ تشرين الاول فوق ذلك :

الكتيبة ٥/٤ من الفرقة المختلطة

الكتيبة ١/١٨ من آلاي صيادة افريقيا الشمالية

البطارية التاسعة للمتراليوز ٦٥

نصف بطارية من الـ ٧٥

وقد امكنت هذه العناصر المختلفة من القيام بادىء ذي بدء باعمال الشرطة وثم بمقاومة الثورة واعادة الحالة الى

نصابها وتصفيتها بعد ذلك ٠

وقد نقل الجنرال قائد جيوش الشرق بعد موافقة الجنرال القائد العام مركز قيادته الى دمشق ليتسنى له تتبع الحالة المعرضة للتقلب في كل برهة عن كثب ٠

الاعمال العسكرية من ١٣ الى ١٨ تشرين الاول — ارسلت منذ ١٣ تشرين الاول حملة بوليسية الى جسرين حيث كانت تقيم منذ ايام عصابات من اللصوص فعادت بـ ١٠٦ اسرى و ٢٤ جثة ودل ذلك على عظم خسارتها اما خسارتنا فكانت طفيفة ٠

واستمرت حركة القمع في ١٤ تشرين الاول من جانب هذه الحملة — فاحرقت قرية المليحة التي ثبتت مشاركتها للصوص وثم قرية جرمانا التي احرقت بدورها في ١٥ تشرين الاول بعد ان انذرت بتسليم سلاحها ولم تفعل ٠

ومنذ عشية يوم ١٧ تشرين الاول طرقت الكتيبة ٢١/١١ من فرقة صيادة افريقيا الشمالية قرى حمورة وصحنايا وجسرين بينما كان فرسان الشركس يهاجمون جرمانا من جديد حيث عاد بعض الدروز الى احتلالها ٠

يــوم ١٨ تشرين الاول — بدأت الفتنة في دمشق يوم ١٨ تشرين الاول بهجوم كان يقصد فيه على ما يظهر شخص الجنرال سراي ودام نحو ٤٨ ساعة ٠

وكان منذ زمن طويل قد اعلن عن وجود عصابات بامرة نسيب البكري ورمضان شلاش وكان من العسر اللحاق بها رغم حركات الاستكشاف العظيمة والرسل التي بثت وراءها لان حلقة الارتباط كانت مفقودة من صفوفها ومن جهة اخرى كانت الاخبار تتوارد منذ اول تشرين الاول عن الاعتداآت المتزايدة يوما فيوما على حياة الجنود المنفردين ٠

« ويظهر انه تأكد الآن جيداً بان هذه العصابات استطاعت الدخول الى دمشق من احياء الشاغور والميدان بفضل اشتراك بعض العناصر المشاغبة من سكانها ٠

« وكذلك في ١٨ تشرين الاول وقت العصر اطلقت بعض العيارات النارية من منافذ الاسواق في جهات الشاغور والميدان وكانت تصوب خاصة الى الجنود المنفردين ٠

« لما كان الجنرال المفوض السامي حضر في الامس من بيروت وذهب في الصباح الى ازرع ودرعا ليتفقد

مراكز الحملة صحبة الجنرال قائد جيوش الشرق فيظهر
انه اتفق على ان يكون موعد عودته اشارة لبدء الهجوم
العام . وقد تحقق ايضا انه نصب كمين في جهات محطة
القدم لمهاجمة القطار الذي يقل الجنرالين حين عودتهما وما
حال دون ذلك سوى تقديم ساعة الوصول فقط . ولحسن
الحظ عزم المفوض السامي لدى وصوله الى دمشق على
أن يزور أولا مقر هيئة أركان الحرب للوقوف على الحالة
الحاضرة .

والخلاصة فقد هوجمت دار العظم بعد العصر بقليل
ويظهر أن القوات المهاجمة كانت منظمة كما أن الأوامر
كانت تلقى عليها من فوق السطوح المجاورة .

ولم تستطع سيارات المترايوز التي ارسلت للمحافظة على
الدار وتخليص حاميتها من بلوغ هدفها لانها هي ذاتها كانت
عرضة لرصاص البنادق داخل تلك الاسواق الضيقة و كان
الرصاص بهذا المقدار حامياً وقريباً من الهدف حتى أن
الجنود الموجودين فيها كانوا على وجه التقريب كلهم
جرحى وأما قطعة المشاة التي أتت للنجدة فقد ارتدت على
أعقابها تحت وابل من الرصاص المتساقط من السطوح .

والدبابات التي أرسلت بعد ذلك بقليل لم تتمكن من الوصول إلى دار العظم بسبب الحواجز التي صادفتها في الاسواق (متاريس قوية من بلاط الشوارع) فاضطرت الى التقهقر .

واستمر أزيز الرصاص يدوي حتى منتصف الليل وهو صادر من جميع الجهات ولا سيما من حول القلعة وكان الرصاص الذي يطلق من ناحية البساتين يقع في جانب الشمال الشرقي والجنوب الغربي من مقر هيئة أركان الحرب .

« وكان يطلق بتواتر من كل جهة : من السطوح والنوافذ الخ .. وأحرق السلابون بالمشاعل قسما من محلة الارمن في القدم .

« وبدأ السكون يعود عند منتصف الليل تدريجيا وقضي الهزيع الاخير منه في هدوء نسبي .

« أما ما أبديناه من المقاومة في بحر هذا اليوم الاول فكان مبنياً على طلب السلطات المدنية . وقد اقتصر عمل القيادة علىّ تجربة انقاذ دار العظم وتعزيز حاميتها بحيث يبلغ عدد رجالها ٧٠ نفراً .

« وعدا ذلك فقد اقيمت الحواجز حول الحي الأوروبي

والمؤسسات العسكرية وأمكن بهذه الواسطة عدم توسيع الحركات . والخطة الحربية التي وضعت ساعدت على اعادة النظام باقرب وقت .

ولما جمعت الوحدات العسكرية في صباح يوم الاثنين الواقع في ١٩ تشرين الاول أصبح ممكنا أن يحافظ بثبات على مراكز الدفاع المنظمة وأن يحتفظ بقوة احتياطية مؤلفة من كتيبة واحدة .

وأخيراً فان جميع المدافع الجاهزة بخلاف الموجود منها في حصن غورو وفي قسم الطيران أعدت ووزعت على المراكز الكائنة في الحميدية والقلعة .

« يوم ١٩ تشرين الاول — ومع ذلك فقد حمي وطيس نيران البنادق في يوم ١٩ واستمر الهجوم على دار العظم بقيادة أهل السطوح المجاورة بدون انقطاع واشتعلت الحرائق في جوار القلعة وكان على الكولونل قائد هذا الموقع أن يقاوم هجوما مزدوجاً أحده مئات من ثوار يتكاثر عددهم ساعة فساعة والآخر من جمّ غفير من الدمشقيين الذين كانوا يترقبون الفرصة والسلاح بيدهم لطرد الاجنبي مدفوعين بعامل الدعاية الخداعة التي بثها أهل السوء بينهم منذ عدة شهور »

ومما لا ريب فيه أن بعض أفراد الدرك شارك الثوار في حملاتهم .

« وحصرت حركة القمع في الأحياء الثائرة :

الشاغور والميدان والعمارة فقط وادارها مركز القيادة بعناية دقيقة تتوافق وضرورة الاجراء العاجل لمنع امتداد الفتنة وتحويلها الى ثورة هائلة .

« ورغم تدخل المدفعية والطيارات فقد كانت خسائر الارواح والاموال بفضل الاساليب الحكيمة التي استعملت قليلة على قدر المستطاع .

« على أنه لم يلجأ الى هذه الواسطة الا بعد طلب المسيو بريفا أوبوار مندوب المفوض السامي لدى دولة سوريا الذي سمح للسلطة العسكرية بالتدخل لاعادة النظام وترك لها الحرية التامة في استعمال الوسائل اللازمة .

« وانقضى نحو ٢٤ ساعة على بدء الحركة وكان الواجب أن تعود السكينة في أقل من ٢٤ ساعة .

ولكن الثوار كانوا يطلقون البنادق من السطوح والنوافذ وكان من المتعذر اخضاعهم بمعركة تنشب في الازقة ولربما تؤدي إلى ضرورة الاستيلاء على الاحياء

الثائرة الواحد بعد الآخر . فبقطع النظر عن أن خطة كهذه تستلزم وضع قوة هائلة فهي لا تفيد الا بمساعدة الدبابات والمدفعية وتسفر نتيجتها عن سفك دماء جنودنا بدون أن نفوز بتجنب الاضرار المادية . وقد يساعد بطء هذه المعارك على اتساع الشغب واعمال السلب والحرائق .

ولما كان من الضروري أن يبادر الى نجدة حُماة دار العظم في دفاعهم الباهر فقد قر القرار على أن نجرب في بادئ الامر ضرب معنويات العدو .

فأطلق من القلعة على السطوح المجاورة لدار العظم بعض طلقات من طراز الاسهم النارية التي ترسل للاشارة بينما كانت الطيارات تضرب حي الشاغور .

وقد صدر الامر لحصن غورو باطلاق بعض القنابل من عيار ١٢٠ بفترات بطيئة على البساتين الواقعة في جنوب شرقي دمشق بقصد انذار العصاة .

وازدادت هذه الحركات الثلاثية شدة بعد الظهر وانقطعت أخبار حامية دار العظم كأنها هلكت وسط تلك الدار المحاطة بالنيران .

وفي مقابل ذلك سمح للاسر الأوروبية أن تلجأ

إلى المؤسسات العسكرية .

« ولكن اطلاق البنادق لم ينقطع عند هبوط الليل في أسواق الحميدية ومدحت باشا وأحياء الشاغور والميدان والعمارة .

« وعندئذ صدر الامر الى القلعة بمداومة الضرب والى مدفعية غورو (١٢٠ ل و ٨٠ ث) بتصويب قنابلها الى أحياء الميدان والشاغور ذاتها وان لا تطلق على الجبهة الشمالية من سوق مدحت باشا وحدد أخيراً لقائد المدفعية في حصن غورو عدد اقصى لما يجب اطلاقه من القنابل التي تنفجر بشكل أسهم نارية وذلك للتأكد من عدم اكثار الاضرار في الارواح والاموال مع بلوغ الهدف من تأثير فعل القنابل المنفجرة على أعصاب الأهالي .

« يوم ٢٠ تشرين الاول — ويظهر ان استمرار اطلاق القنابل بفترات غير منتظمة طول ليل ١٩ الى ٢٠ تشرين الأول اتى بالنتيجة المرغوبة .

« والواقع في الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٠ حضر وفد برئاسة الامير سعيد حفيد عبد القادر إلى دائرة أركان حرب جيوش منطقة دمشق .

« وفي عين الساعة اجتازت حي الميدان سبع مصفحات كانت قد وصلت إلى القدم في عشية الامس وشاهدت الحواجز المقامة والخنادق المحفورة فهزأت بهذه الموانع وبطلقات البنادق التي كانت تصلها من كل جهة وكانت تصوب نيرانها إلى من يقف في طريقها وتلقي الرعب والذعر في القلوب .

« وفي الساعة العاشرة تقدم أيضاً الى دائرة أركان الحرب وفد كبير برئاسة حقي بك العظم رئيس مجلس الشورى وطلب المفاوضة .

« فصرح للوفدين بناء على طلب مندوب المفوض السامي بان الحركات العسكرية لا توقف الا في ساعة الظهر وأن السلطات المختصة تقابلهما في الساعة الخامسة عشرة . على أن القيادة أوقفت الضرب كما أوقفت الاعمال التي كانت أعدت لتنفذها صباحا في حي الميدان لكنها أرسلت المصفحات إلى حي النصارى لاجل تسكين روع الاهلين .

« وعقد مؤتمر في الساعة الـ ١٥ من يوم ٢٠ تشرين الأول برئاسة مندوب المفوض السامي أسفر عن قبول

مندوبي دمشق دفع غرامة قدرها مائة الف ليرة تركية وتسليم ثلاثة آلاف بندقية حربية وحدد موعد انجاز ذلك قبل ظهر السبت الواقع في ٢٤ تشرين الأول علىَ أن يستأنف ضرب المدينة إذا لم تنفذ الشروط .

« وقد اكتتب فعلا بمبلغ الـ ١٠٠٠٠٠ ليرة وانما البنادق لم تسلم جميعها في الميعاد المحدد مما أدى إلى تدخل مصلحة الاستخبارات التي استعانت بالجنود علىَ البحث عن السلاح .

« وبعد هذه الحوادث بدأت السكينة تخيم على دمشق وفتحت الحوانيت أبوابها وأخذت مظاهر الحياة الاعتيادية تعود بالتدريج الى ما كانت عليه قبلا .

« وقد تضررت بعض الاحياء وانما معظم هذه الاضرار كان من فعل الحرائق التي أضرمها المشاغبون والسلابون وأما المدفعية وقنابل الطيارات فاضرارها كانت خفيفة بفضل حيطة القيادة التي لم تكن تستعمل القوة الا بنسبة اللازم للمحافظة على سلامة الافرنسيين وممثلي الدول الاجنبية ورعاياهم وقد استطاعت باقصر وقت وبنفقات قليلة أن تحول دون اتساع الحركات التي ربما كانت تنقلب إلى أعظم كارثة دمشقية .

دسائس الانكليز وغيرهم

وكتب سراي في ٢٥ آب ١٩٢٥

« لا أعتقد بتدخل البلاشفة في الحوادث الاخيرة ولكني متيقن ولدي الادلة على تدخل الانكليز الذين منذ ما شعروا بوقوفي على حركاتهم أصبحوا كثيري اللطف وبادروا إلى تقديم مساعدتهم التي لا يتكرمون بها دائماً . (ولكن لا يجب أن يفهموا ذلك لانني بحاجة الى معونتهم)

وفي ١١ أيلول قبل نشوب الثورة بشهر واحد أرسل الجنرال سراي البرقية الآتية الى الكاي دورساي .

بيروت في ١١ ايلول ١٩٢٥

برقية

عنوان : قسم الشؤون السياسية - باريس

« بعث اليّ الامير عبد الله رسولا مزوداً بالمعلومات عن جبل الدروز وهو يدعي بان السلطات الانكليزية

تعضد الثورة وانه قادر على فتح المخابرات بين الاطرش والسلطات في عمان (عمان عاصمة شرق الاردن خاضعة للانتداب الانكليزي) فاجبته شاكراً ورجوته ان يعيد البدو الذين قدموا الى جبل الدروز من شرق الاردن بقصد السلب والنهب الى منطقتهم وان يقفل الحدود بوجه الجواسيس الدروز . وطلبت عين الطلب من حكومة القدس (القدس عاصمة فلسطين خاضعة للانتداب الانكليزي) فاعرب لي عن حسن نيته واستعداده للقدوم الى بيروت اذا اضطر الحال فاظهرت له عدم الفائدة من ذلك وكررت له الشكران . ويدل هذا المسعى الغريب على العداء الكائن بين الامير عبد الله والانكليز وربما يدل ايضا على ادعاء الهاشميين بعرش دمشق واري في هذه التمهيدات ما يؤيد ظني بان الركابي خصم الامير ليس غريبا عن حركات الجبل . ويفهم من المعلومات الواردة ان في الجبل بعض المشاغبين الذين يسعون في تحويل العصيان الى حركة عربية واسعة النطاق وان الركابي والشهبندر وصلا الى السويدا وعلمت كذلك من الاوراق التي ضبطت بان القنصل الانكليزي بدمشق يرقب تطور الحالة عن

كذب وتدل المعلومات المأخوذة عن الاوساط القنصلية في بيروت بان فكرة وساطة الانكليز سوف لا تجدي نفعا .»

صراي

ويتضح من هذه البرقية بان الدسائس الانكليزية ضد فرنسا كانت تدبر في شرق الاردن وان الامير عبدالله حاكم البلاد في ظل الوصاية البريطانية كان مستعدا لان يقوم بتمثيل دور من ادوار هذه الرواية .

وتصادف لحسن حظ فرنسا ان الامير عبدالله كان يبغض زعيم عصابة من شرق الاردن له من النفوذ ما يرهب الامير وكان هذا الزعيم من عملاء الانكليز المخلصين وبينما كان حلفاؤنا يجزلون العطاء لهذا الخصم كان الامير عبدالله يفضح السر لفرنسا .

واستطاع صراي بفضل الوثائق التي بيده ان يتحقق من صدق معونة اصدقائنا الانكليز الطيبين لنا ...

ولكن جميع هذه المعلومات الدقيقة لم تكن لتسترعي اهتمام الكاب دورساي فالمسيو بريان لم يشأ الا بكل صعوبة ان يجازف ببعض كلمات لسفير بريطانيا لمح بها تلميحا مبهماً الى الحالة .

فأظهر السفير عدم اعتقاده بصحة ذلك ودافع بالأدلة الشفاهية عن إخلاص حكومته في حين أن جيش الشرق الصغير كان معرضاً لأخطار المكايد التي يحوكها بعض موظفي المكتب الاستعماري الغيورين ... وبعض الضباط البريطانيين ...



رأي سراي في حملة جريدة

الايكودي باري

قد يبدو غريباً ان نطلب الحكومة من المفوض السامي في إبان مشاغله العديدة في ٥ تشرين الاول ٩٣٥ تقريراً ضافيا بالحوادث المبحوث عنها في حملات الايكودي باري فاجاب سراي لاول مرة بكتاب نضعه تحت أنظار القارئ ليطلع على ما ورد فيه من الآراء السامية :

بيروت في ١٧ تشرين الاول ٩٢٥

من الجنرال سراي المفوض السامي للجمهورية الفرنسية والقائد الاعلى لجيش الشرق

الى

حضرة رئيس مجلس الوزراء ووزير الحربية

في باريس

• •

« ان الاثر الذي تركته حملات المسيو دي كريللس في

الرأي العام وخاصة بعد نشر الوثائق يدل على انني كنت ضحية خيانة عدد كبير من رجال بطانتي ولا يسعني الا الاعتراف بذلك لاني ابقيت في المناصب الرئيسية سواء في الادارة ام في الجيش عددا من الموظفين والضباط هم في الحقيقة خصوم لي ورغم معرفتي ذلك كنت اظن بانهم سيحسنون على الاقل خدمة فرنسا . ولكني خدعت وقد فكروا في بادئ الامر بتأليف حزب . وها اني اذكر بعض الاسماء واهمها المسيو غوتيه الذي كان مندوبا معاونا في دمشق ورئيس القسم السياسي في البعثة تحت ادارة المسيو شوفلر اولا والمسيو دايله ديلوج اخيرا اي بعد سفر الاول بالاجازة وكان برأس عصبة عزمت على نقض تعليماتي المتعلقة بجبل الدروز وذلك بتأييدها سياسة رينو التي ترمي الى التعاون مع آل الاطرش غير حاسبة اي حساب لمطامع هؤلاء الزعماء الذين ما انفكوا يطالبون باستلام الحكم . وهي التي القت الرعب في قلوب الدمشقيين منذ بدء اغارة الدروز بترديدها ذكر سلطان الاطرش المخيف وهي التي سعت بكل قواها لمفاوضة الثوار في سبيل عقد الصلح ولو قضى الامر بتضحية كرامة فرنسا .

« وقد سبق لي ان نبهت بنوع خاص ولا زلت انبه الى ان بداية الثورة نشأت عن عراك ضابطين من ضباط الاستخبارات : احدهما حاكم الجبل بالوكالة وهو يريد منصب الحاكمية لنفسه ويعتمد على عضد آل الأطرش الذين اقصاهم كاربييه لتحقيق امنيته فكان مضطرا لان يغير سياسته ولكنه هجر السياسة المتبعة في جميع الازمان وكان نشوء الثورة .

« ومن يزعم بان آل الاطرش يذعنون للسكينة في ظل حاكم نظير رينو فهو يثبت جهله لطبيعة الدروز ولاسيما اسرة الطرشان الذين لا يعدمون الحيل لاثارة الفتن بدون ابطاء .

« وقد اظهرت الاكاذيب التي نشرها المسيو ده كربلاس وهي : اعانة جريدة العهد الجديد ومعاقبة الكابتين شوفان والكلمات السمجة التي عزا الي التفوه بها والبرقيات التي كنت ارسلتها وشوهها عن قصد . اما الوثائق التي نشرها فهي صحيحة ولكنه لم ينشر الا ما كان موافقا له ، وبشكل يخدم فيه اغراضه . وقد باشرت التحقيق لمعرفة الاشخاص

الذين سمحوا له بالحصول على هذه الوثائق وساعاقبهم على ما جنت ايديهم ٠

....

وقد ظن المسيو ده كريللس انه يصح له بصفة كونه من الضباط القدماء ان ينتقد بكل سهولة من الوجهة العسكرية ما اتخذته من الاستعدادات ٠ ولما كنت على علم بان الجنرال ميشو سيفضي اليكم بجميع المعلومات التي ترغبونها فاحصر بحثي في النقاط الثلاث الآتية :

ا — ما تكبدته من العناء في تأليف الحملة لعدم وجود من يقبل الانضمام اليها بحجة انهم يأتون الى الشرق ليتخلصوا من مراكش ولان قواد المنطقة كانوا يعارضون في التخلي عن وحداتهم ٠

ب — صعوبة النقليات في داخلية سوريا ٠

ج — اشتباك الكتيبة المدغسكرية التي كان يمثلها في الفرقة بلوك الرشاشات والبلوك المختلط المؤلف على الاخص من الافرنسيين واما بلوكا المشاة المدغسكريان اللذان نظما فجأة فقد بقيا في المؤخرة (اجابة لطلب

الكومندان اوجاك في تقريره)

« وقد اقتصرت على ابداء الملاحظة بان بعض مرؤوسي كانوا عقب اليوم الثاني من آب يفضلون العودة الى مقر حامياتهم وان لا يحاربوا ولربما كان المسيو ده كربللس يقر ذلك لو كان في مركزي على اني نظرت الى كرامة فرنسا قبل كل شيء آخر .

« وكان الواجب بكل اسف ان المّح الى سلفي ولكني كنت افضل السكوت على انه لا توجد طريقة اخرى لدفع التهم التي الصقها بي المسيو ده كربللس بشكل منظم قصد تحميلي جميع التبعات .

« وكان الواجب ايضا أن اصرح بالتدقيق بان الجنرال ويغان قد رفض في آب ١٩٢٤ ان يستقبل آل الاطرش نفسهم ولم ازد شيئا عما فعله بعد سماعي شكاويهم وكنت أعرفهم وكان هو الذي عين الكابتين كاربييه كما عين صبحي بك بركات رئيسا للدولة السورية الذي تثبت الايكودي باري (بانه صنيعة سراي)

فالموسيو ده كربللس صوّر كيفية دعوة زعماء الدروز الثائرين الى دمشق كما شاءت اهواؤه . اما أنا

فاقول باني وافقت عليّ اقتراحات رئيس دائرة الاستخبارات (وهي الدائرة التي بقي رئيسها وضباطها يشغلون عين المراكز التي كانوا يشغلونها في عهد سلفي) وكانت هي الطريقة الوحيدة .

ا — للتمييز بين الزعماء الذين يعترفون بسلطتنا وبين اولئك العصاة . وهي طريقة شهيرة وسارية في جميع المستعمرات لانه اذا ما اريد التحقق من الزعيم فيستدعى ليرى ما اذا كان يلبي الدعوة .

وها سلطان الاطرش فانه لم يحضر .

ب — وثم كان من الضروري اجتناب القبض على مثيري الفتنة في السويدا نفسها لئلا يجد الاخصام مجالا لايقاد نيران الثورة .

وقد اختتم المسيو ده كريلس سلسلة مقالاته بطعن شديد في شخصي فكان مجلبا لهزئي .

على اني ارى من الواجب ان الفت نظركم الى ما تحدثه حملة المسيو ده كريلس من الاساءة الى فرانسا في هذه البلاد التي يعظم نفوذ السلطة فيها لانها تولد في افكار العامة الاعتقادات الآتية :

ا — بان فرنسا غير قادرة علىَ تأييد الامن في هذه الربوع وتنفيذ شروط الانتداب .

ب بانه لا قيمة حربية للجيوش الافرنسية المتواردة

ج بان السوريين واللبنانيين الذين لم يهتموا قط بالشؤون السياسية الداخلية بفرنسا يجدون انفسهم مدفوعين رغماً منهم للتدخل فيما يعنيهم وقد يسفر ذلك عن اعاقة تقدم بلادهم .

التوقيع : سراي

ولما عاد الجنرال سراي الى دمشق في ٢٠ تشرين الاول كتب إلى أحد أصدقائه في فرنسا هذا الكتاب الخاص :

« لا يمكن وصف الضرر الذي تلحقه حملات المسيو ده كريلاس بفرنسا ، أقول بفرنسا وليس بشخصي العاجز .

« فالحكومة في جميع الاقطار الاسلامية كما في سوريا يجب أن تكون عزيزة الجانب . »

« وقد حضر المسيو ده كريلاس خصيصاً للقضاء علي وهذا حق له . ولكن الواجب على الحكومة أن تحميني بكل قواها ليس لأني سراي بل لأني المفوض السامي »

« ولما شاهد جميع الحانقين والدساسين والمشاغبين ان هذا الصحافي يقذف نفثات النميمة السامة بلا رادع ولا عقاب اقتفوا اثره في الاعراب عن ضغائنهم . »

« ولكنه لا يظفر بجلدي فهو محفوظ للانكليز وسيستمر على صخبه وضجيجه في جميع الأوساط التي نجحت فيها حملته الوطنية »

« واني اعده كما اعد الانكليز مسؤولا عن امتداد الثورة وعن حركات الثورة وعن حركة دمشق . »

«ولو كنا في عهد الجمهورية الاولى لكان اعدم بالرصاص ولكنه في زمن الجمهورية الثالثة يقلد الاوسمة

«مسكينة ايتها الديانة كم من الجرائم يقترف باسمك »

صراي



فضل الانكليز نادر

ممثل قسم المستعمرات في دمشق

سعادة المستر سمارت (ابن عم شمبرلن)

في هذه الايام العصيبة المملوءة بالفواجع بينما كان خمسة آلاف من الجنود الفرنسيين يستبسلون في صد هجمات ثلثمائة الف من المسلمين الثائرين وينقذون بفضل نظامهم الممتاز وبسالة قوادهم الانتداب الافرنسي صادفت القيادة العليا في شخص المستر سمارت القنصل البريطاني خصما لدودا خبيثا يتقلب بين النعومة والخشونة متفانيا في اجادة تمثيل دوره .

لم يكن الكاي دورساي يجهل المستر سمارت فقد سبق لسلفاء الجنرال سراي ان اوقفوه على الجهود التي كان بذلها في سبيل معاكسة فرنسا . ففي ١٤ تشرين الاول كتب المستر سمارت الى مندوب المفوض السامي بدمشق

رسالة تشف عن وقاحة غريبة الشكل طلب فيها اقامة مخفر للشرطة لحماية منزل واحد يقيم فيه المستر ليـاس من التبعة الانكليزية بدعوى انه وقع هجوم ليلي على احد الشوارع القريبة من الدار البريطانية .

وفي ١٨ تشرين الاول أرسل سعادته الى القيادة العليا ترجمانه مكلفاً إياه احضار ضابط لكي يستطيع القدوم بحماية هذا الضابط عاجلا إلى القيادة لبث شكواه . »

وهكذا تيسر لي لاول مرة أن أشاهد قرب الساعة العاشرة صباحاً تحت لعلعة الرصاص ممثل بريطانيا المخلصة بوجهه الامرد وعينيه المتقدتين شررا يرتعش غضبا كالمظلة وسط العاصفة وبدأ يتفوه باحقر عبارات التهديـد فقال لرئيس أركان الحرب :

« اشكو واشكو واشكو برقيا الى حكومتي الجليلة وهي تشكو الى حكومتكم الموقرة . »

فيتضح من سماع قوله (وتتولاني الرعشة عندما اذكر ذلك) انه يوجد بـين الضحايا الاولى ثلاثة أشخاص من الرعايا البريطانيين وذكر اسماءهم بكل افتخار . وما هي الا

اسماء ثلاثة من المسلمين لا أرى ضرورة لسردها إذ لا يستحق أصحابها أن يتركوا ذخيرة المذربة

وبوشر بالتحقيق أثر تصريح سعادته وأتى رئيس أركان الحرب بنفسه وأخذ يعطي الإيضاحات الجلية بكل هدوء .

فعلم بأن « هؤلاء الثلاثة من التبعة البريطانية » لم يكونوا سوى ثلاثة لصوص وجدوا جاثمين فوق شجرة وقت اطلاق البنادق في الصباح على بعد مائتي متر من دار هيئة أركان الحرب .

وكان هؤلاء الثلاثة من التبعة البريطانية « المتعصبين » يسددون المرمى إلى مركز القيادة العامة بكل دقة بحيث اضطررنا إلى إرسال سيارة رشاشة لزحزحتهم عن موقفهم .

عندئذ لم يسع سعادته الا الاذعان لحكم الحق فأخذ بتقهقر وعلائم الخجل والارتباك بادية على محياه « كثعلب اقتنصته دجاجة » مؤكداً وقف الحادث عند هذا الحد .

وقد صرح بقوله « إن أسماء العرب كثيرة التشابه ولا ريب أن ما حصل هو خطأ لتشابه الأسماء فهؤلاء

ليسوا بجانبي واتركهم لكم » . وسيذهب المستر سمارت شوطاً بعيداً . . .

* * *

عمد القنصل الى الأخذ بالثأر واتخذ منذ اليوم التالي موقفاً معادياً .

وجمع لديه هيئة القناصل وتولى بنفسه الكتابة مرة ثانية الى مندوب المفوض السامي وتضمنت رسالتـه التي كانت أشد سفاهة من الاولى عبارات التهكم والهزؤ بأعمالنا الحربية .

وقـد لمح إلى إغارة عصابة صغيرة بعضدها بعض الرعاع . وأنه ليس ثمة ما يسوغ التدابير التي أخذتهـا القيادة وبعد خمسة أسطر بعود مأخوذاً بعاطفة الحنان فينذر مندوبنا بأن سلامة الأجانب معرضة للخطر وأن هيئة القناصل مضطرة إلى اعتبار « سلطة الانتداب مسؤولة عن حياة وأموال رعاياهم الموجودين في دمشق » .

ثم بأخذ القنصل سمارت بتعزيز مناوراته فيلقي الذعر في كل مكان كما تثبته البرقية التي أرسلها الجنرال غاملان إلى القائد العام :

« علق قنصل إنكلترا اعلاناً على دار القنصلية أخطر فيه رعاياه بوجوب الاجتماع عنده لأن المدينة ستضرب بالقنابل غداً في الساعة الثالثة عشرة وأن المسيو أوبوار سيخبره غداً في الساعة التاسعة صباحاً عما إذا كان ضرب المدينة سيستأنف منذ الظهر .

« فعمل هذا القنصل الذي يمثل دولة حليفة القى الرعب في قلوب الأهلين الذين كانوا يتهافتون على قراءة هذا الاعلان وأسفر عن عرقلة أعمال قوات السلطة المنتدبة تماماً لذلك أرجو أن تحاط السلطات البريطانية علماً بسلوكه » .

غاملان

وكانت نتيجة تصرفات القنصل سمارت أن سيلاً من المراجعات والشكايات أخذ يتدفق من وزارة الخارجية البريطانية على الكاي دورساي فتغلب عليه القلق . على أنه كان في وسعه بل وكان من واجبه أن يعضد المفوض السامي في المعركة المرائية التي أثارها القنصل سمارت بالأكثر على فرانسا منها على شخص معتمدنا .

أما مراي فليس أنه لم يلق أي تنشيط على عمله

فحسب ، بل إنه كان عرضة للاخطارات والتنبيهات المتواصلة بوجوب المحافظة على الأنظمة الدولية ، مما دعا إلى فروغ صبره فجاوب كما يجب أن يجاوب :

بيروت في ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٥

برقية

القسم السياسي — باريس

« لا أنسى أبداً أن سوريا مشمولة بالانتداب — وأثنـاء حوادث دمشق لم ينذر أحد لا من الإفرنسيين ولا من الأجانب ، وعندما كان الافرنسيون والأجانب يشعرون بأنهم معرضون للخطر ويأتون الينا فكنا نحميهم لأن نيران البنادق الحامية التي يصلينا بها العـدو المهاجم لا تدع لنا وقتاً للإخطار ووضع الاعلانات فعملنا هو الدفاع والهجوم .

سراي

ولما وردت على سراي من الكاي دورساي تعليمات أخرى كأنها نفس التعليمات الاولى إذ يطلب فيها المحافظة على الأنظمة الدولية المقدسة أجاب :

« أعرف الأنظمة الدولية وأتبعها دائماً ولكن

لا يمكن تطبيقها في دمشق لئلا تقع المدينة في أيدي الثوار الذين يجهلون جميع الاتفاقات والأنظمة الدولية »

وبعث صراي في ٢٦ و٢٧ تشرين الأول ببرقيات مستعجلة الى الكاي دورساي يطلب اليها فيها التوسل الى نقل القنصل سمارت وإبداله بممثل يحسن ممارسة سياسة الوفاق التي تتبعها حكومته رسمياً

وفي ٣٠ تشرين الأول عاد الجنرال غاملان الى تنبيه المفوض السامي إلى سلوك المستر سمارت :

الجيش الإفرنسي في الشرق

قيادة الجيوش

دمشق في ٣٠ تشرين الأول ٩٢٥

من الجنرال غاملان قائد جيوش الشرق

إلى حضرة الجنرال القائد العام للجيوش الإفرنسية في الشرق

بيروت

لي الشرف أن أنقل اليكم الحديث الذي جرى عرضاً بيني وبين السيد ... نائب دمشق لتأخذوا علماً به

« يظهر أن السيد ... الذي تربى في بلاد الانكليز

أخذ منذ عدة أعوام يميل الى القضية الافرنسية فيمكن والحالة هذه اعتبار أقواله صادقة وبعيدة عن المحاباة .

« فقد أكد لي بأن قنصل انكلترا كانه يوماً ما الاشتراك بمظاهرة ترمي الى ابدال الانتداب الفرنسي بانتداب انكليزي » .

« وقد أشاع المستر سمارت من جهة أخرى قبل الشروع بالاعمال الحربية بان الافرنسيين لا يجرأون على ضرب دمشق

غاملان

وأخيراً فان الجنرال صراي أرسل في ٧ تشرين الثاني الكتاب الآتي نصه الى وزير الخارجية :

بيروت في ٧ تشرين الثاني ٩٢٥

من الجنرال صراي المفوض السامي للجمهورية الفرنسية لدى دول سوريا ولبنان والعلويين وجبل الدروز

الى سعادة وزير الخارجية (آسيا — اوقيانيا)

في باريس

بشأن الدسائس الانكليزية

« لي الشرف ان احيطكم علما بان دمشق اصبحت في هذه الآونة مسرحا لدعاية انكليزية قوية جدا يؤيدها ما

يروجونها من الاشاعات الكاذبة القائلة بان انتداب سوريا سيتحول الى الانكليز .

« ويدير الدعاية قنصل انكلترا . وافاد احد الثقات ممن خدموا قضيتنا وأوقعه الانكليز في سجن الآستانة مدة ستة شهور بان قنصل الانكليز اجتمع في عشية حوادث دمشق في حي اليهود بالامير طه عبد القادر الذي اضطررنا الى القاء القبض عليه فيما بعد لتواطؤه مع الثوار . »

سراي

وفي ١٤ تشرين الثاني كان سراي المستدعى الى باريس



العودة الى فرنسا

اقلعت الباخرة (سفنكس) في ١٠ تشرين الثاني ٩٢٥ مقلة الجنرال سراي واسرته الصغيرة .

وكان ما يثير الكدر مشاهدة هذه الباخرة الفخمة خالية على وجه التقريب من المسافرين .

والسبب هو ان جميع الضباط والموظفين الذين كانوا دونوا اسماءهم قبل زمن طويل لركوب هذه الباخرة اختفوا في الساعة الاخيرة ولم يظهر سوى واحد منهم .

ولم يكن ذلك مدهشا لانه احرى ان يؤجل الانسان سفره من ان يعرض نفسه لعدوى المصابين بطاعون السخط وفقدان الحظوة ..

وصلنا الى الاسكندرية في ١١ تشرين الثاني حيث مكثت الباخرة قليلا واتانا في خلال ذلك المسيو البر لوندر الصحافي الكبير بصدى الاشاعات السخيفة التي كانت منتشرة في العاصمة .

وقد انصب هذا الكاتب فيما بعد على بحث القضية السورية

بحثا مجردا عن كل غرض شخصي وكان اول من تجاسر على كشف طرف من قناع القضية وامتداح الجنرال مراي في مقالات نشرتها جريدة البتي باريزيان بعد ان شذبتها يد المراقبة قليلا .

***

بارحت الباخرة مرفأ الاسكندرية

وبدأ الافق يسدل غشاءه على المدينة ولم بعد يرى من الميمنة على طول البحيرات المنبسطة سوى كرمة بيضاء جسيمة تمثل القصر الملوكي الذي كان يخفق على قمته العلمان المصري والانكليزي جنباً الى جنب

وكان مراي واقفا في مؤخرة الباخرة وحده يمعن النظر في علم الاتحاد البريطاني (اونيون جاك) فاتيت اليه وبادرني بهذا القول :

« انظر الى عدوي اللدود فاني اشمخ برأسي امامه لعلمي بما يكنه لي من البغض وهذا ما يدل على انني لست بهذا المقدار افرنسيا فاسدا . »

« أأنت تفكر في سالونيك ياحضرة الجنرال ? »

« نعم . ولكن الذي اعتنى بانزالي الى البر في ذاك الوقت كان « نمرا » له منطق خاص يبرره وفاؤه للانكليز . . . اما الآن فالضربة اشد واقسى . »

فوجدت ان اسبقه بالفكر وقلت :

« اتمنى يا حضرة الجنرال ان لا يقع المسيو بانلفيه في مثل هذه الورطة ويعاني مرارة تخلي الاصدقاء عنه وان كان من المحقق رجوعه اليك ، كما حدث للقديس بطرس بعد تلك العاصفة الهوجاء . . . »

فاجاب مراي : « انت لاتبشر بالانجيل الا لكي تتفوه بالفاظ سخيفة — لا تثلة بالشخصيات دائما ! فانت تعلم باني مخلص لاصدقائي . . . ولا انسى قط باي حماسة دافع بانلفيه عني في عام ١٩١٦ وعام ١٩١٧ لدى اللجان ومجالس الحكومة ! فالملاحظة التي قصدت ابداءها هي عامة واسمى من تلك الروح التي تدفعك الى نقد هذا الشخص ام ذاك . فلو كان الامر يتعلق بشخصي لاحسنت احتمال جميع الهجمات . . ولكنه بعكس ذلك فهو يتعلق بممثل فرنسا . وكان الواجب على الحكومة أن تفكر فيما تتركه هذه الحملات من الصدى الشنيع في طول البلاد وعرضها ؛ فاذا هي تسامحت باستماع عبارات الشتائم والقذف فكأنها تسامحت بزعزعة نفوذ فرنسا في الشرق واظن ان الساعة قد حانت للعمل علىَ اعلاء شأن هذا النفوذ »

وثم وردت برقية لاسلكية تعلن تعيين المسيو ده جوفنيل مفوضا ساميا في سوريا .

عشية الظفر

عقد بعض غلاة الوطنيين اجتماعا خطيرا في بهو « واغرام » عقب عودة سراي الى باريس لتكريم منقذي فرنسا وهما : المسيو ده كربللس والابكو ده باري « وتبارى عدد كبير من الخطباء في توجيه عبارات القذف والوعيد الى الجنرال سراي (ذاك الذي اهان الزعماء الدروز النبلاء ، وافسد القضية الوطنية في الشرق) وكان الحاضرون يحتدمون غيظا كلما ذكر امامهم فعل الهمجية وهو ضرب مدينة دمشق .

وبعد انفراط عقد الاجتماع ذهب بضعة شبان من الوطنيين يصرخون ويتوعدون تحت نوافذ هـذا الافرنسي « الفاسد » الذي ارتكب اكبر جناية بثباته مع خمسة آلاف من الجنود امام ثوار دمشق وانقاذه في ذاك اليوم الانتداب الافرنسي (كما اعترف بذلك بريان من على منبر مجلس النواب)

وألف الشبان موكبا نظير حرس شرف لاصطحاب بعض الخطباء الذين تكلموا في ذاك الاجتماع الحماسي الى الشوارع الكبيرة وقد عانى ثلاثة من الخطباء وبينهم أحد النواب أشد الصعوبات للتملص من مطالب المعجبين بهم وكان على رسل السلام هؤلاء المدافعين عن أشرف قضية أن يجتمعوا مساء بشارع «فارين» في أحد القصور القديمة حيث يقيم أحد الاعيان الكاثوليك المصاهر طبقة الاشراف

« أرجو أن لا يلومني القارئ على عدم حضوري هذا الاجتماع بالذات .. وقد حصلت على هذه التفاصيل من أحد عشراء الاسرة . ومما تحسن الاشارة اليه أن هذا الشخص — وهو موظف — قد ندم على ما باح به . »

وقد اعد عشاء «سري» جمع نخبة من القسس ومن محبي الانسانية الكاثوليكيين الذين يجتمعون مرة في العام حول مائدة فاخرة . وعند الفراغ من الطعام أخذوا

يتباحثون بكل خشوع ويمتدحون نجاح الاعمال الخيرية المسيحية التي نشرت الدعاية والايمان في أقطار المسكونة وخاصة في لبنان .

وكان يرى بجانب الاساقفة المارونيين ذوي اللحى الكثيفة أحبار من أعظم المتأنقين وشخصيات بارزة من السياسيين التقليديين ومن أصحاب المصارف الكبرى واسرائيليان من ذوي الثروات الواسعة اعتنقا المسيحية بطنطنة عظيمة .

وكان لهذه الحفلة الصغيرة أهمية خاصة بسبب الحوادث واعظمها استدعاء مراي بفضل المساعي «الحميدة المتواصلة»

ثم ان ربة القصر وهي عجوز تنعم بشبه غريب باولئك المركيزات الجميلات اللواتي تذكرن بالعصور السالفة — قالت متلهفة : — « بشرط أن يستطيع أصدقاؤنا الاعزاء الذين كانوا موضع الهتاف في بهو « واغرام » أن يشهدوا نهاية اجتماعنا وقد وعدوني بذلك — آه كم لهتاف هذا الجمع المتحمس من المعاني السامية التي لا يمل من سماعها ؟ في الحقيقة ان هذا اليوم هو يوم عظيم لفرنسا . »

وكان اسم « ويغان » العذب يتطاير من فم لآخر .

وأخيراً وصل الابطال الصناديد ودخلوا القاعة العليا ذات السقوف والجدران المذهبة التي كانت مزدانة بصور الانقياء ولكن كان أيضاً (والله وحده يعلم كيف ذلك) بين هذه الصور رسم يمثل المجرفة والربة هو رسم « موريس بارّيس » !

فقال أحدهم بتواضع — وكان من ذوي البطون الجسيمة وله لحية مروسة ووجه من الطرف الواحد يشبه بلا جدل الجندي « الزواف » في موقعة جسر (الما) ببلاد القرم : — « ما هذا النجاح ؟ — ما هذا الظفر أيها الاصدقاء ؟ »

وتقدم بطل آخر في ريعان الشباب وكان اشبه شيئاً بقائد الكشافة وأضاف مندفعاً في الكلام :

« كنا كرماء لانه لولا تداؤنا وتوصيتنا بالهدوء لهاجم هذا الجمهور المتحمس عرينه (أي عرين سراي) في شارع بربر ... »

وساد السكون وعقبته صلاة عامة ومنحت البركة ... وثم اختتمت الحفلة بخطبة شائقة لذيذة القتها ربة الدار :

« اعزائي ! أرجو أن لا ترمقوني بعين الشزر — ونحن

بين بعضنا البعض — اذا ما كشفت القناع عن التواضع المتناهي الذي أظهره أحد ضيوفنا الكرام في حين أننا لم نقم بالواجب تماماً لما يستحقه من الاجلال والاحترام ٠

وذكرت اسم موظف سابق في المفوضية العليا بسوريا ، مَن أدت به غيرته في خدمة القضية المقدسة الى خزي ومعاقبة « الرجل الكافر الفرمسوني سراي » ...

فدوت أصوات الاستحسان بين الحضور الاتقياء واتجهت الانظار جميعها الى احد أطراف المائدة حيث كان قابعا في مكانه موظف من اتباع « كورنيل » هو نفسه الذي لم يتردد في تسليم أربع وثائق مسربة من الملف الاداري في دمشق ٠

وكان ضمنها وثيقة واحدة ذات قيمة عظيمة هي المتضمنة دعوة الطرشان الى الاجتماع بدمشق ولكن العناية الربانية شاءت أن يكتب سراي « الخائن » فيها نوعا من العذر كافيا لاقناعه أمام الله والناس بالخيانة نحو الدروز ٠ ولا ريب أن هذا الموظف الشديد الوفاء لم يكن يتوقع مثل هذا الثناء ٠

فعلا وجهه الاصفرار بغتة واراد بحركة فجائية أن يوقف عبارات المديح .... وقد عيل صبره وهو الرجل

المتواضع ... فشوهد وهو في اشد حالات الانفعال يضرب المائدة بقبضة يده ضربة هائلة

وصاح هذا الشخص الجذاب وهو رجل في إبان العمر بوجه نضر وشعر خفيف وعيون كثيرة الحزر قائلا :

« أرجوكم فان في هذا الكفاية ! لم أحضر الى هنا الا تلبية لدعوتكم اللطيفة ورغم اني احب التزام السكوت ؛ ولكني لا استطيع تركـكم تتمادون في سوق عبارات الثناء الي وانا ويا للاسف لا استحق شيئاً منها ! واخيراً فقد كفى ما نالني من حمل السلاسل وحدي فيجب على كل واحد منكم ان يأخذ نصيبه منها »

فهمس احد اساتذة معهد الحقوق الكاثوليكي في اذن سيدة جالسة بالقرب منه قائلا : « ما معنى كل هذا يا عزيزتي ، يلوح لي انه اصيب بالجنون . »

فأخذ الجميع يهمسون بنغمة واحدة كما كانوا يرددون قبل هنيهة أسم وبغان العذب : « اصيب بالجنون . لقد اصيب بالجنون . »

فاجاب ذاك الصوت بجفاء : « لنتكلم بكل حرية ولنجرب ان نكون صريحين . لقد حرضتموني على الخيانة .

نعم على الخيانة لأن الموظف الذي يسحب ورقة من ملف سري لا يحق له افشاء ما فيه ، هو خائن . وقد تقولون إن ذلك كان لمقصد حسن . ففكرت طويلا مثلكم واعتبرت أن الغاية وحدها تبرّر الواسطة ، على أنه وإن كانت الغاية شريفة ونقية فلا بد من نوال الغفران ؟ أما وقد تمزق الحجاب أمام عيني فصرت لا أشاهد إلاّ نتيجة فعلي . كنت ظاناً أني خنت رئيسي ... « ولكن اتضح لي أن الخيانة كانت بحق فرنسا ! .... »

وكان قائد الكشافة واحد الخدم المدرّبين متأهبين لوضع حد لهذه الألفاظ البذيئة ولكن الخطيب المتحمس أوقفهما بحركة تهديدية وقال :

« راجعوا مطالعة صحفنا وانظروا كيف أن الدروز الذين مدحنا قضيتهم العادلة باعوا أنفسهم من الإنكليز .. »

فأجابه أحد الأساقفة السوريين بلهجة شديدة :

« إذا كان حصل ذلك أيها الصديق فلا أحد يشعر به .... وهل يناسب لأجل مسائل تافهة أن تفسد العلائق الودية بين الدولتين العظيمتين ! »

وعندئذ صرخ الرجل الشبيه (أيزواف الألما) وهو

يتميز غيظاً : « إخرس أيها الكذاب . فإن مرابيه قد وصل وهذا وحده كاف . »

فرد الموظف عليه : « لا يمكنك أن تمنعني من السير حتى النهاية . . وفضح القضية عند الحاجة . . ويكفي لذلك أن يتقدم واحد أو إثنان من التعساء نظيري الى الساحة العمومية ويعلن الحقيقة » .

— « ولكنهم لا يصدقونك » .

— على كل حال اني لم اتصرف إلاّ عن خلوص نية فقد خدعتموني بنصائحكم ، وأغريتموني بوعدكم واني نادم ولكن ذنبكم أشد من ذنبي الوفا . وأظنكم الآن تقبلون استعفائي من جمعيتكم « أصدقاء البعثات الدينية » .

وبينما كان الأساقفة السوريون ذوو اللحى الكثيفة ، والأحبار المتأنقون وبضعة الأتقياء الذين شاهدوا هذا الفصل المفجع مأخوذين بعوامل الدهشة خرج السيد . . . من القاعة وأغلق الباب المحلى بخيوط ذهبية بعنف أحدث دوياً عظيماً .

ولم يسمع وسط همس الحاضرين سوى صوت ضابط قديم يصيح بدون كلل : « شيء بغيظ ... يظهر أنه يسرع الخطى نحو العمل ... ويحب الضربات القاضية ... أسمعتم كيف ردد هذه الكلمات ... الخيانة الخيانة ... الخيانة .... »



القضية السورية في مجلس النواب

خطبة لم تلق

فتحت حوادث سوريا باباً لمناقشات طويلة في مجلس النواب والأعيان ولكنها كانت سطحية ·

ولم يتعرض أحد لأساس القضية في حين أن أكثر من واحد من النواب كانت لديهم معلومات دقيقة ·

وقد طلب أحد النواب — وكان أظهر ميلا لتدخل جدّي — أن يقارنوا ما بين مستنداتـه والمستندات التي يستطيع أن يبرزها معاونو الجنرال ·

فأفضت هذه المقارنة إلى وضع خطبة مستوفية الشروط رأى واضعها أن يطلع عليها أصدقاء الجنرال ليرى حكمهم فيها قبل القائها فاستحسنها الجميع ·

وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما سمعنا بعد بضعـة أيام هذا الخطيب وكان اسمه مـدونا في رأس لائحة الاستجوابات يلقي خطبة عادية مملة لا معنى لها ·

ولم أعد أملك نفسي عن الاستفهام من هـذا النائب الذي كان في عين الوقت رئيسا للجنة الجيش بلهجة قاسية عن السبب الذي دعاه إلى تغيير خطته ٠

فأجابني قائلا : ماذا تريد أن أفعل ٠ فقد تبصرت في الأمر في الدقيقة الأخيرة ووجدت أنه لا يجب علي أن أثير المشاكل في وجه الحكومة التي لي فيها أصدقاء عديدون ولم أحجم عن مشاورة بعض الشخصيات في المقامات العليا فحولوني عن عزمي » ٠

هاهي الخطبة التي لم يجرؤ النائب على القائها ولو أقدم على ذلك لمـا أمكن الحكومة أن تتملص من بحث ما عليها من التبعات وهي فوق ذلك وثيقـة توجز القضية بشكل باهر :

« أيها السادة !

« قرأت يوماً في إحدى صحف الحزب الملكي التي لا تعد بين الصحف المشايعة للجنرال سراي والتي انتقدت أعماله في سوريا انتقاداً مراً بأن هذا الجنرال استدعي ولكن ليس من قبل الحكومة الفرنسية بل من قبل الحكومة البريطانية فتأثرت جداً ٠

« وإني أترك للجنة الشؤون الخارجية العناية بإيضاح هذه القضية الهامة إيضاحاً تاماً وإني كعضو في لجنة الجيش أقدم نفسي للمساعدة على بحث حقيقة الأسباب التي أدت إلى هذه الحوادث التي تنتظر البلاد معرفتها ·

واسمحوا لي بان أقص عليكم حادثاً جاء ذكره على ما أعلم في أحد تقارير الجنرال غاملان الجندي الباسل الذي كان يريد البعض اظهاره بمظهر الخصم لرئيسه في حين أن هذا الاخير لم يحظ قط بمعاون اشد وفاء واخلاصا منه ·

« أوردت بعض الصحف الفرنسية شكوى الصحافة الانكليزية من الخسارة التي انتابت الرعايا الانكليزية بوم ضرب دمشق ويظهر ان القنصل الانكليزي حضر بنفسه في ذاك اليوم التاريخي وهو يوم ١٩ تشرين الاول الى مقر أركان الحرب ليعلن بشكل مربع فقد ثلاثة أشخاص من الرعايا الانكليز وذكر اسماءهم

والواقع أنه في الصباح أطلقت عدة طلقات نارية على مقر أركان الحرب وكان مطلقوها مختبئين بمهارة بين الاشجار المجاورة التي تكاد تبعد مائتي متر عن المقر ·

« فأنزل اثنان من هؤلاء الاجلاف بالرصاص والثالث قبض عليه وهو يحاول الهرب واعدم بالحال ...

« لا أريد أيها السادة أن أعطي لهذا الحادث أهمية أكثر مما يستحقه ولكني اصرح ولا أخشى التكذيب بانه لم يكن هنالك سوى الاشخاص الثلاثة من الرعايا الانكليز .

« واذ اني تكلمت عن ضرب دمشق اود ان اسأل الحكومة التي تحرز جميع المعلومات التي تمكنها من تقدير الحالة ، اسألها الاجابة عن هذا السؤال : هل يستطيع الجنرال سوله ولديه خمسة آلاف جندي وسط مدينة ثائرة ان يتخذ من التدابير الواقية غير التي من شأنها أن تهدد المدينة بالضرب ؟

« وكان ينبغي مهما كلف الأمر ان يمنع المترددون من الانضام الى الثوار ومهاجمة الحي المسيحي كما كان يجب أيضاً منع العصاة من البقاء فوق السطوح واطلاق الرصاص منها على رجالنا .

« ولا يجب أن يغرب عن البال بانه يوجد بين الأحياء الثائرة بدمشق أزقة ضيقة ومسقوفة وكان غير

ممكن أن نفكر في حرب الشوارع التي يقتضي لها عدد وافر من الجنود وتكلفنا خسائر فادحة .

• واني اقف عند هذه النقطة الآتية وهي صلة ضرب دمشق باستدعاء سراي التي يظهر بان بعض الصحف العربية والانكليزية أراد أن يثبت وجودها .

أيها السادة ! اذا كان التدبير الذي اتخذته القيادة هو وحده الذي أسفر عن نتيجة فعلية عاجلة لانه اضطر الثوار الى التسليم فلماذا أبطأت الحكومة بهذا المقدار في الدفاع عن القواد المسؤولين ، نطلب الايضاح عن ذلك

• ولا يجب أن ننسى الضعف المتناهي التي كانت عليه القوات الموضوعة تحت امرة القيادة لاجل الدفاع وقت الطوارئ فقد كان عدد حامية دمشق خمسة آلاف نفر وعدد القوات في جميع البلاد السورية ٢٢ الفا من الرجال وهذا يدعوني لان أطرح السؤال الآتي على الحكومة كيف صادقت الحكومة في عام ١٩٢٥ على تخفيض قوى جيش الشرق الى ١٣ كتيبة منها ٦ كتائب سورية وهي تعلم أن السلاح لم ينزع في سوريا وانه يوجد في كل منزل بنادق وذخائر ؟

« ولا أريد أيها السادة أن القي هنا درسا في الفنون الحربية ولكن هناك مبدأ أقرته جميع الدول وهو مبدأ الامن الذي أوجب علينا صك الانتداب توطيده كما ألزمنا بحماية الاقليات المسيحية في الشرق . وكل احتلال ولو سلميا لبلاد معرضة لاخطار الشغب والهيجان يجب أن يلازمه نزع السلاح من الاهلين بصورة منتظمة ومتتابعة .

« وقد صرح بعض ذوي النفوذ من أمد بعيد بان سوريا ولو كانت مسالمة في الظاهر الا أنه لا يؤمن جانبها من حيث المحافظة على السلام ما لم ينزع سلاحها . حتى أن ضباطنا أخذهم العجب من تفاؤل بعض المقامات تفاؤلا مبتسرا . وقد قرأت في أحد تقارير مصلحة الاستخبارات في السويدا الذي أرسل في تموز ١٩٢٤ الى قيادة جيش الشرق قبل وصول الجنرال سراي ما ياتي :

« دلتنا الحوادث الاخيرة على أن الشعب الدرزي اذا ما انفصل عن زعمائه القدماء يضع ثقته بنا ولا يتبع مثيري الحركات السياسية . على أن ذلك لا يمنع من استمرار هذه الحركات استمراراً يعزى الى أنه

في الاحوال التي وقعت فيها حادثة بوكسان (وهي فتك سلطان الاطرش بملازم افرنسي نصب له كمين همجي في ٢١ تموز ١٩٢١) لم تكن العقوبة موازية للعمل المقترف بحيث أن سلطان الاطرش خرج من المعمعة كبيرا ! ... فعلينا اذن الحذر في التفاؤل ولو وجدنا أمام نتائج باهرة ..

« ان جبل الدروز بلاد الغرائب فقبل وقوع حادثة بوكسان بقليل كانت الحالة على احسن ما يمكن أن تكون في بلاد مستقلة . وفي العشية التي سبقت الحادث بعث المسيو ترانكا حاكم الجبل بالبرقية الآتية الى دمشق : « اتبع سلطان الاطرش نصائح الرؤساء الدينيين وعاد مع رجاله . الهدوء شامل المنطقة والمدينة »

« وقضى سلطان ليلته في منطقة قناقر وقد اشار عليه بذلك متعب بك (الذي عثر بعد ذلك في قريته على قنابل من التي استعملت في حادث بوكسان)

« وفي صباح اليوم الثاني قتل بوكسان ... والآن فان هؤلاء الرجال ذاتهم يقومون بنفس الدسائس . وقد

يولد الحادث الذي دبرته عصابات منظمة تنظيما صحيحا الشرارة اللازمة لاشعال البارود . »

ويثبت لنا هذا المثل المنتخب من امثال عديدة ايها السادة باننا لم نكن نخبر على الاطلاق بما كان يجري من الحركات في سوريا قبل وصول الجنرال سراي وعلى الاخص في جبل الدروز .

« وعدا الضرورة التي كانت تقضي بنزع السلاح منذ زمن طويل فهنالك مسألة اخرى لا تقدر اهميتها الا متى امكن الاطلاع على بعض الوثائق المتعلقة بها .

« لماذا لم يلجأ الى الوسائل الفعالة بحق بعض الزعماء الدروز الذين كانوا دائمي الثوران بوجه جيوشنا وتركت الاسلحة في ايدي العصاة ؟ اصحيح ان سلطان الاطرش رغم جناياته العديدة نال العفو بشكل غريب عقب حركة ثورية خطيرة بينما كانت دائرة الاستخبارات (ولدي البرهان) تُعلم السلطات العسكرية بنواياه الجديدة على التعاون مع زعيم آخر يدعى « مصطفى الخطيب » ؟ وكان سلطان الاطرش وقتئذ محكوما باعدام ليس لاقترافه الجناية التي تكلمت عنها فحسب بل لجنايات اخرى عديدة

ارتكبها في خلال عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١

الا تعتقد الحكومة بانه كان الواجب ان تحول هذه الجنايات دون عفو لا محل له وانه كان من الواجب عليها ايضاً ان تؤيد الحكم ؟ فلماذا ؟ وكيف ؟ ومن منح العفو في ٥ نيسان ١٩٢٣ عن سلطان الاطرش ؟

« ولا زلت اعتقد بانه لو غلت ابدي هذا الزعيم لكان الامل ضعيفا بنشوب الثورة . وكان لفقدان المعلومات عن الحالة شأن كبير اذ انه سمح لبعض الصحف بان تمثل سلطان الاطرش والدروز كضحايا الاستعمار الافرنسي والجور الاداري وبلغت الجرأة بهذه الصحف الى الاعلان في صفحاتها بان المفوض السامي » خان سلطـان الاطرش وهزأ بذاك اللص التاريخي سفاك دماء المسيحيين الذي مع ذلك يعز كثيرا على « الابكودي باري » التي انقل عنها هذه العبارات المشبعة بروح العطف .

« وكان جهل الحالة جهلا تاما لا يكفي لبلبلة الخواطر حتى اتخذت الصحافة الرجعية خطة غريبة ازاء الجنرال سراي قائد جيوش الشرق تماثل في نهجها نهج الصحافة الشيوعية تجاه اعمالنا الحربية في مراكش تماماً . وكان دأبها الطعن والافتراء والعمل على مس كرامة اكبر قائد يقود

جيشا محاربا ، مؤكدة بانه سائر بهذه الجنود الى الخزي والعار .

« وكانت تقيم المقابلة دائما بين الضباط الملكيين في الجيش والضباط الجمهوريين واذا ما حكم على ضابط من حزب (الاكسيون فرانسيز) بعقوبة انذرت بالويل والثبور ونسبت العقوبة الى الرغبة في الانتقام ولكن الضباط الآخرين الذين يستبسلون في قضاء الواجب ، اذا ما كوفئوا بتدوين اسمائهم في سجل وقائع الجيش ادعت هذه الجريدة بان الباعث لهذه الشهادات هو حب المجاملة .

« ومن شر البلايا ان يكون الشرف الوطني خائضا غمار الاخطار وتبرز بعض الصحف الافرنسية بآيات المجاملة والعطف على خصومنا وبحملات القذف والطعن على ضباطنا وهم في حومة الوغى بحجة انهم جمهوريون !

« يسوءني جداً ان أثير مناقشة كهذه ولكن هل في وسع الحكومة ان تخبرنا لماذا لم تبسط للرأي العام الجوابات الرسمية التي نحن على ثقة بانها تلقتها لتقضي على الاشاعات الكاذبة وتصون شرف جيوشنا !

« ونعلم الآن حق العلم بان القيادة العليا لم تدع فرصة

تمر دون ان نطلع الحكومة على دقائق الوقائع .

«وكانت الحكومة تتلقى في كل يوم برقيات مسهبة من الجنرال سراي الذي بلغت برقياته المرسلة الى شارع سان دومينيك منذ بدء الحركات في جبل الدروز ١٤٢ برقية . وكان المسيو بانليفه يجيب عن اسئلة الصحافيين واعضاء المجلس : (لا خبر لديّ)

واذا كانت جميع هذه الوثائق لم تصل الى حضرة وزير الحربية ففي وسع الحكومة ان تحدد منذ الآن التبعات ، وتعين للمذنبين المسؤولين عن هذا الاهمال العديم المثال .

« وكان الواجب ولا شك ان يباشر باجراء التحقيقات . ولي ملء الثقة بان الحكومة بعد اقدامها على ذلك لا تتأخر عن ايقافنا على النتائج .

« ولا نيأس من العثور على مفتاح هذا اللغز المغلق فقد استطاع جميع الناس ان يطلعوا في بعض الصحف على وثائق سرية تتعلق بالعسكرية وعلى تقارير مكتومة من دوائر الاستخبارت في جيش الشرق واصرح بانني لا الح أكثر من هذا الالحاح اذا ما قيل لي بان

التحقيق في قضية هذه الاذاعات جار مجراه ٠

« على ان هنالك مسألة دقيقة لم تتوضح ولها من الخطورة ما يوجب الاهتمام »

« أورد القومندان أوجاك (الذي تسلم قيادة إحدى الوحدات العسكرية التي تألفت قبل أن تتم تعاليمها العسكرية) في إحدى تقاريره الخطر الذي يخشاه من انزال الكتيبة التي يقودها إلى ميدان القتال بدون تمرين سابق ٠ فأخذ الجنرال ميراي علما بمضمون هذا التقرير وأرسله من بيروت الى جبل الدروز بطريق التسلسل الأدنى حتى يطلع عليه قصداً الجنرال ميشو قائد الحملة ولكن هذا التقرير لم يتبلغ بتاتا وقد عثر موخرا على النسخة الاصلية منه مخفية بين مجموعة من الملفات لما حضر الجنرال دوبور الى بيروت لاجل التحقيق ٠ على ان بعض الصحف التي اتصلت اليها بطريقة عجيبة صورة عن هذا التقرير لم تتقاعس عن نشره في حينه عقب الوقائع العسكرية التي تعلمونها ٠

« أهناك مجاملة أثيمة ؟ نعم وهي التي أحادت تقرير

القومندان اوجاك عن طريقه القويم وأوقفته لغايات سياسية في أيدي خصوم لا زلت اعتقدهم بريئين من هذه المؤامرة

« ولي وطيد الامل بان الحكومة ستبادر الى تهدئة الخواطر في البلاد فتنزل العقاب بالجناة وتنصف الذين اقدموا في الساعات العصيبة على القيام بالواجب بدون ضعف ولا خور .

***

والكل يعلم بان المجالس النيابية لم تنشأ لستر الفضائح بل لاذاعة الحقائق ...



الزعماء الدروز النبلاء

والذهب الانكليزي

وثيقة

عقب بضعة أشهر من عودة الجنرال سراي بعث الجنرال غاملان الى وزارة الحربية بالرسالة الآتية مع الوثيقة التي نورد عنها بعض الخلاصات وهي تميط اللثام عن الدسائس الانكليزية .

القيادة العليا لجيوش الشرق

في ٢٠ تموز ٩٢٦

من الجنرال غاملان القائد الاعلى لجيوش الشرق

إلى حضرة وزير الحربية

« لي الشرف أن أبعث اليكم طيا بصورة عن اقرار الزعيم ... (وذكر الجنرال اسمه ولكنا نسكت عن

ايراده لئلا نعرضه للانتقام) الذي سلم نفسه حديثاً بدون قيد ولا شرط .

• وقد لعب هذا الزعيم في الثورة ومنذ نشوئها دوراً خطيراً . ولا ريب أنه مطلع على جميع الدسائس السياسية التي رافقتها .

ويظهر أن أقواله في أغلب المواضيع صادقة ولا سيما فيما يتعلق باعمال سائر زعماء الثورة . فانها تبعث نوراً جديدا أو بالاحرى تؤيد ما لدينا من الادلة على ما قام به حزب الشعب بنوع خاص من أعمال التحريض لتواطؤ حليفه سلطان الاطرش الذي عاهده منذ ربيع عام ١٩٢٤ على اختلاق حادث يفضي الى نشوب الثورة . وعلى تصرفات السلطات الحاكمة في شرق الاردن ولربما بعض الضباط الانكليز أيضاً . ومما يجلب دقة النظر هو أنه في مثل هذا الوقت كنا معرضين في مراكش لأعظم الأخطار ؟ فمن المفيد والحالة هذه أن نبحث فيما إذا لم تكن نفس المؤثرات التي أدت الى انفجار الثورة في البلاد الواحدة هي التي أضرمتها في البلاد الاخرى .

وجدير أن يلاحظ كيف يصف الزعيم . . . .

أعمال الكبتين ربنو ؟ وأرى من اللازم إذا ما أدلى هذا الزعيم ببيانات أخرى في المستقبل أن نودع الأمر إلى القضاء .

ولي الشرف أن أسألكم التفضل بتسليم صورة الاستنطاق الواصلة طياً إلى حضرة الجنرال سراي وذلك لأن تصريحات الزعيم الدرزي تتعلق بزمن قيادته وتزيح القناع عن حقيقة أصل الثورة التي طالما أرجفت الألسن بالعثور عليها بينما لم تكن سوى ادعاءات فارغة .

« يحدث الزعيم ... كثيراً عن سلوك السلطات في شرق الاردن وفلسطين من وطنيين وإنكليز بأنه سلوك مشبع بروح العطف علي الثوار وقد كانت اتصلت بنا معلومات أخرى وافرة وأكيدة عن السلوك عينه »

« ومما لا ريب فيه أن حياد جيراننا الجنوبيين كان حافلاً بروح العطف نحو الثوار . إذ أن الوظائف في الإدارة الوطنية بشرق الأردن وفلسطين كان يشغلها أناس من حزب فيصل ومن بعض الضباط والموظفين الأتراك القدماء الذين يكرهون فرنسا »

« وأما الضباط والموظفون الإنكليز التابعون لهذه الدائرة

الاستعمارية فميولهم معروفة وهم لا يحسبون حسابا للتعليمات التي تأتيهم من المقامات العليا ، طالما يعتقدون أن في سلوكهم هذا المسلك يخدمون مصالح بلادهم . وعلى ذلك فالوسيلة الوحيدة التي تضطرهم الى الكف عن مثل هذا اللعب الخطر هي جمع البينات الكافية ووضعها تحت أنظار رؤسائهم ... »

غاملان

* * *

وكان الزعيم الدرزي الذي تولت استجوابه دائرة الاستخبارات عضواً في المجلس التمثيلي بجبل الدروز ومن أقدم أسر الجبل وأشرفها نسباً .

وكان له نفوذ حقيقي بين مواطنيه لشدة إخلاصه لأحد فروع عائلة الأطرش التي تعد أولى العائلات نبالة في الجبل وهو فرع « عرى »

وكان ذكياً بعيداً عن الاهتمام بالسياسة وله منزلة أكبر صديق لدينا وكانت علائقه الشخصية بالكابتين كاربيه وثيقة العرى ولأجل ذلك رفض القيام بأي سعي ضده كما رفض التوقيع على المضابط .

على أنه وجد نفسه مضطراً إلى الخضوع لإرادة سلطان الأطرش فانضم إلى الثوار عند زحف الجنرال ميشو على السويدا وقد أصبح بفضل بسالته وفروسيته من أكبر معاوني الزعيم الاعلى (وكان توقيعه على الوثائق ملازماً دوماً لتواقيع كبار الزعماء)

وعهدت اليه قيادة من الدرجة الاولى واشترك في جميع المواقع الكبرى وثم سلم نفسه وعين له مكان للاقامة الجبرية ·

وقد أرسل الجنرال غاملان إلى وزارة الحربية الكتاب المتقدم ذكره مرفقا بمحضر الاستجواب الذي فأخذ عنه الخلاصة الآتية :

مديرية مصلحة الاستخبارات

في دمشق

بيروت في ١١ تموز ١٩٢٦

استجواب المدعو · · ·

١ — معلومات عامة عن بدء الثورة ·

سؤال — تفضل بإفادتي سريعاً وبكلمات قليلة عن بدء الثورة · ماذا شاهدت ؟ وماذا صنعت ؟

جواب — يجب قبل كل شيء أن أثني على الكابتين كاربيه فإنه ساعد على تقدم الجبل تقدماً عظيماً بإنشائه المدارس . ولربما يشكون من طبعه النزق ولكنه كان يستقبل أصغر صغير — وأصل هذه القضية هو عدم رغبته في مجاملة آل الأطرش وكان ذلك سبب استيائهم .

ولما قدم الكابتين رينو سعى آل الأطرش إلى التفاهم معه بقصد استعادة نفوذهم ووعدوه في مقابل ذلك أن يطلبوا تثبيته في مركزه

وأسفرت المساومة بعد عدة اجتماعات عن قبول رينو . وحينئذ باشر آل الأطرش بحث الأهلين على توقيع المضابط المتضمنة الشكوى من الكابتين كاربيه (وفي أغلب الأحيان بوقع على المضابط أناس يجهلون مضمونها)

س — كيف نظم الهجوم على حملة ميشو ومن قام به ؟

ج — قبل موقعة المزرعة — وكانت الحملة لا زالت في موقف التردد — سأل أحد كبار زعماء حزب الشعب بدمشق سلطان الاطرش كيف يستطيع محاربة الافرنسيين والدروز لا يخزون شيئاً من معدات الحرب ولا عندهم اسلحة ولا ذخائر ؟ فعندئذ

اجاب الشهبندر بانه يتعهد بتقديم المؤن والمعدات الحربية . وبالفعل سافر ... الى الجنوب وتوجه الى قديبين في شرق الاردن وعاد بعد غياب سبعة أو ثمانية أيام مزودا بالذخائر والمؤن والدقيق .

فالانكليز هم الذين ارسلوا هذه الذخائر والمؤن بالسكة الحديدية وكانوا ينقلونها بالقطارات الى قديبين ومن هناك ترسل على ظهور الجمال الى الجبل

س — متى كان وصول هذه الذخائر — اقبل موقعة المزرعة ام بعدها ؟

ج — قبل الموقعة وكان الشهبندر احضر معه ايضاً طبيبين .

س — كيف وقف الدروز على استعدادات حملة ميشو وزحفها ؟ وكيف امكنهم مشاهدة حشد الجنود ؟

ج — كانت المعلومات تتوارد الى الشهبندر من الانكليز

....

س — الم يكن بين اركان حرب سلطان ضباط اجانب ؟

ج — نعم كان يوجد ضباط اجانب وقد رأيتهم مرارا مع سلطان الاطرش وسألته من اين اتى هؤلاء الضباط فاجاب من عند الامير عبد الله

س — هؤلاء الذين كانوا ينظمون الهجوم على الافرنسيين ؟

ج — نعم وكان يوجد قبلا فؤاد سليم من اكبر الزعماء وكان يضع الخرائط .

....

س — كيف كان يموّن الدروز بالاسلحة والذخائر . ومن اين كانت تأتي الذخائر ؟

ج — من شرق الاردن والى الآن توجد اسلحة من وارد شرق الاردن .

س — كيف كانت تصل الى الجبل ؟

ج — كانت تأتي بالقطار الحديدي الى فدبين وكان الدروز يرسلون الجمال الى هناك .

س — اوضح لي هذه النقطة : من يبيع الاسلحة في شرق الاردن ومن هم رؤساء القافلة الذين يحضرون الاسلحة ؟

ج - ان رسالات الاسلحة والذخائر والنقود تصل بالقطار الى فدبين ويرافقها عادة ضابط من شرق الاردن وهي ترد من عمان ولما تفرّغ من القطار في فدبين تسلم الى مخفر انكليزي هناك فيضعها بقرب المخفر

ويوجد ضابط من شرق الاردن يدعى حسن افندي هو الذي يقوم بتسليمها الى الدروز واما المكلف باحضارها على ظهور الجمال الى الجبل فهو عقله القطامي المسيحي وولده موسى .

س — على اي طريق تسير قوافل الجمال ومن اين تمر والى اين تصل ؟

ج — كانت تأتي بطريق الصحراء الى ديبين ولكن الآن لم تعد تأتي الى ديبين بل الى الازرق . والمخفر الانكليزي الكائن في محطة السكة الحديدية يرسل سيارات مصفحة لحراسة القافلة الدرزية بضعة كيلو مترات حذرا من اغارة البدو عليها .

س — من هم البدو ؟

ج — عشيرة شمر

س — وهل يحضر الزاد بالطريقة ذاتها وهل توجد مؤن كثيرة في الجبل وهل يوجد ما يقتات به ؟

ج — ان الزاد يأتي بالطريقة عينها والمعيشة الآن في الجبل لا بأس بها والجراية التي يعطونها كافية .

س — ومن يعطي الجراية ؟

ج — يوجد وكيل مقيم في الاردن عهد اليه سلطان باستلام

الدقيق الوارد من شرق الاردن والقيام بتوزيعه .

س — وهل يجري هذا التوزيع بانتظام .

ج — نعم يجري بانتظام

س — كيف يعيش المسلمون ؟

ج — يعيشون من مواسمهم وهي جيدة

س — ماهي الطريقة لمنع ادخال المهمات والارزاق ؟ ...

ج — يتعلق الامر بالانكليز وحدهم فاذا توسط لديهم واذا قبلوا ...

س — تعني جيداً اذا اراد الانكليز منع التموين فانهم يقدرون

ج — بلا ريب .

س — ماذا يعلم ... عن العلائق بين الدروز والانكليز ؟ اهل قدم احد من الانكليز الى الجبل ؟

ج — بعد موقعة كفر حضر ضابط انكليزي من كبار الضباط بالسيارة من شرق الاردن الى عرى وجرت مقابلة سرية بينه وبين عبد الغفار باشا وسلطان وفضل الله باشا والهنيدي والعاص وبعد مبارحته

عرى ذهب برفق سلطان الى كفر واخذ رسم جنث الجنود بالفتوغراف . وما مضت بضعة ايام على هذه الزيارة حتى وصل الى عرى عدة سيارات مشحونة ذخائر حربية وكان سلطان هناك فاظهر سروره لقيام الضابط الانكليزي بوعده .

وقبل موقعة المزرعة وبعدها كان سلطان بين وقت وآخر يجمع حوله زعماء الدروز ويتلو على مسامعهم الرسائل التي ترد عليه من الامير عبد الله ورضا باشا الركابي ومن ضابط انكليزي في شرق الاردن

س— ماذا كانوا يقولون في هذه الرسائل ؟

ج— كانوا يشجعون الدروز ويحثونهم على مداومة القتال مع الافرنسيين وكانوا يعدون سلطان بارسال دراهم وذخائر ونجدات من الرجال وكانت الدراهم والذخائر ترد بانتظام ولكن من الرجال لم يصل سوى نجدة واحدة حوالى ٢٠ آب واشتركت في الزحف على دمشق يوم ٢٤ آب .

وبعد ذلك انقطعت النجدات ولم يحضر سوى ضابط من اتباع الشريف وبعض ضباط انكليز كانوا يأتون من

حين الى آخر لمقابلة سلطان الذي صرح يوماً بان الانكليز بصفة كونهم حلفاء الافرنسيين لا يستطيعون الاشتراك علانية في القتال - وذلك بارسال النجدات — ولكنهم يستمرون على ارسال الذخائر والنقود . وبالفعل فقد كانت ترد قوافل الجمال من شرق الاردن محملة من الذخائر والاسلحة والارزاق .

ولما كان لسلطان وحده صلة بشرق الاردن أعلن بان هذه الاسلحة والمهمات يرسلها الانكليز والجمعيات الاسلامية في مصر وفلسطين . وعين ثلاثة معتمدين يقيمون بالمناوبة في عمان لاستلام الاعانات وهم : موسى بن عقلة القطامي ويوسف العيسوي وشفيق القاضي .

. . . .

س — كيف حالة الدروز اللاجئين في الوقت الحاضر الى شرق الاردن وفلسطين وكم هو عددهم ؟

ج — يقيم الان نحو ٥٠٠ درزي في عمان

س — أهم مسلحون ؟

ج بقول لهم الانكليز : « اذا شئتم العودة الى بلادكم لمداومة القتال فنرد لكم اسلحتكم والا فننزع منكم

. . . .

س — هل يضايق الضباط الانكليز أو التابعون لشرق الاردن الدروز الذين يتجولون في الحدود من جهة الى أخرى باسلحتهم أو بدون أسلحة ؟

ج — ان الانكليز المقيمين في الحدود يخيرون الدروز بين دخولهم الجبل باسلحتهم أو الاقامة في المنطقة الانكليزية بدون سلاح فالذين يبقون منهم في المنطقة الانكليزية يعاملون معاملة حسنة ويعطون خمسة قروش مصرية في اليوم ·

وقد تلي هذا الاستجواب وعرب بحضور ···· فوجده مطابقا لاقواله وأصر على تكرار تصريحه بانه لم يقل سوى الحقيقة بعينها وانه يضع كل ثقته بالحكومة الافرنسية لكي يأمن شر المتاعب التي قد تأتيه من جهة فرنسا أو من جهة أخرى ·

مكان بصمة الاصبع

مكان الخاتم

واني اتحاشى الخوض في وصف هذه الوثيقة المعهودة في الكاي درساي الوصف المؤثر الذي تستحقه ولا أعلق عليها أي تعليق مقتصرا على ذكر تصوري لها وهي بين يدي المسيو بريان يستخدمها بحذقه ومرونته الجذابة لدى زميله

الانكليزي مجازفاً ببعض التلميحات الغامضة بين فترات الجلستين اللتين عقدتا في جنيف إبان اجتماع اللجان الشهيرة المكلفة لان تعد في ظل السكينة والهدوء السلام العالمي لاحفاد أحفادنا .

ويخيل لي أيضاً أنني اسمع ذاك الصوت الافرنسي بنغمته الرنانة يقول :

« يا حضرة المندوب ! أرجوك أن تتشجع ... وتضحي قليلا في سبيل روح السلم محافظة على سلامة أوروبا الجديدة ولا تضطرني لان انبه حكومتك في محادثات خصوصية باني على علم من جميع المتاعب الدرزية مثلا ... فالغيرة التي يظهرها رجالكم هناك تتجاوز الحد اللازم ... ولدي تقارير تثبت ذلك ... »

وهكذا فالمسيو بريان يوضح تلميحاته ويصف بطلاقة لسانه كيفية تسليح هؤلاء الدروز التعساء ونزع سلاحهم واعادة تسليحهم في نواحي شرق الاردن ... وكيف أن العلم البريطاني يخفق دوما على هذه البلاد النائية ... الموضوعة تحت الانتداب ...

« ولكن هدئ روع حكومتك - يتابع بريان بصوته

الساحر — وأخبرها باني لا أسألها سوى تضحية جديدة محلية (أي لا تتجاوز جنيف) وهي التعاون . والثقة في اعمال جامعة الامم . »

وفي خلال ذلك كان جيش الشرق عرضة لاشد المكائد البريطانية .



موت الذئب

فقد مراي في عام ١٩٢٩ شقيقه أولاً ، ثم صديقين له كان يحبهما كثيراً ، ولما هاجمه المرض الذي لا يرحم استسلم هو أيضاً بدوره !

يتراءى لي وهو على فراش الموت يعاني الآلام صابراً لكي يوهم امرأته التعسة واصدقاءه البائسين بخلاف حقيقة حاله .

* * *

ولكني لا أريد أن أفكر بهذه الذكريات الاليمة لان استسلامي للاحزان يمنعني من العمل على تخليد ذكراه المجيدة .

وكان يقول : « يجب على انصار العقيدة الحرة (الطبيعيين) أن يتألموا أكثر من سواهم ، ومن لا يحرز الشجاعة لاقتبال الموت فليصغ الى أحاديث التعازي ! .... »

وقد لمحنا على محيا المسيو بانافيه وهو يرسل تحية الوداع المؤثرة إلى منقذ فردون وغازي مونامتير لسمات وخز الضمير .

وما كان في وسع الوزير أن يضيف إلى ما قاله :

« إن سراي أنقذ فردون رغم إرادة القيادة العليا — وأنه قاوم في سلانيك رغم الضعف الأثيم الذي أظهره بريان — وأعدّ النصر النهائي في الشرق رغم كليمانصو — وأنه أنقذ مسيحيي سوريا من المجزرة رغم وزارة المستعمرات البريطانية ورغم جريدة الايكودي باري وحملاتها لصالح الدروز — ورغم ذبذبة حكومات اليسار التي أجازت التهجم عليه باستدعائه إلى باريس بعد ضرب دمشق والتي كانت ضربتها أشد تأثيراً ، أكثر ظلماً وجوراً من ضربات سائر أعدائه الألداء »

وأود أن أذكر جميع كلمات الوداع المؤثرة التي فاه بها المسيو بانلفيه أمام دار الانفاليد وأسال بها عبرات جنود الشرق . . . أولئك الجنود الذين لم يسامحوا الوزير بعد لسلوكه المشوش في عشيات الشهور التي انقضت بين آب وتشرين الاول . . . ولكني أقتصر على ذكر خاتمة التأبين التي هيجت العواطف أسفاً لبساطتها وعظم بلاغتها

« إن عمانوئيل سراي ذاك الشيخ النبيل الذي كان ينحني بقامته المنتصبة عليَّ وجوهكم الفتية بعطف الاب

يخلف لكم اليوم اسماً عظيماً تذكرونه بالفخر ، وقدوة جليلة تقتدون بها » .

***

وقد عثرت بين المذكرات التي كان يبعث الي" منراي بها من بيروت وبين رسائله القيمة على احدى عبارات ديموستين اعظم خطباء اليونان الاقدمين وكان نقلها الجنرال مصادفة الى ورقة اثناء مطالعاته ، وقال لي يوم ارسلها :

— هذه فكرة تروق لك وهي افضل مائة مرة من الكتاب الذي وضعه النمر (كليما نصو) عن هذا الخطيب .

واليك نص العبارة :

« يموت سعيداً من استحق لآخر دقيقة من حياته بغض اعدائه ووفاء اصدقائه الصدوقين . »

باريس في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٩

تم الكتاب

فهرس الكتاب

ص

